بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه رقم: (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: سورة طه، وهي مكية، بسم الله الرحمن الرحيم: {طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى * تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى} [سورة طه: (١-٨)].

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، وقوله: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} قال جويبر عن الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله -صلى الله عليه وسلم- قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: {طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى} فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في الصحيحين عن معاوية -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين))[1].

وقال مجاهد في قوله: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} هي كقوله: {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}[سورة المزمل: (٢٠)] وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم في الصلاة، وقال قتادة: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} لا والله ما جعله شقاءً، ولكن جعله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة {إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى}.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد، فقوله -تبارك وتعالى-: **{طه}** الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة، {طه}** بعضهم يقول: هذا من الحروف المقطعة، وبناء عليه يقال فيه ما قيل في الحروف المقطعة، والأقرب -كما ذكر هناك- أن هذه الحروف ليس لها معنى في نفسها، ولكنها تشير إلى الإعجاز أي أن القرآن مكوَّن ومركب من هذه الحروف التي تركبون منها الكلام، وأنتم عاجزون عن الإتيان بمثله، ولهذا لا تكاد تذكر إلا ويذكر بعدها القرآن، لكن من أهل العلم من يمنعون كونَ هذا من الحروف المقطعة، ويذكرون له معنى، فبعضهم يقول: هذا لفظ عربي جاء على لغة بعض العرب، بعضهم يقول: لغة عكّ، وبعضهم يقول: لغة طي، وبعضهم يقول غير هذا، وهو أن معناه: يا رجل، ويأتي على هذا بشواهد من العربية في شعر العرب، تتضمن هذه اللفظة بمعنى يا رجل، وبعضهم يقول: إنه في لغة بعض العرب بمعنى: يا حبيبي، وبعضهم يقول: هو لفظ غير عربي، فبعضهم يقول

---

[1] - رواه البخاري كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، برقم: (٧١)، ومسلم كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، برقم: (١٠٣٧).

بالسريانية، يعني: يا رجل، وبعضهم يقول: بالحبشية، وبعضهم يقول: بالنبطية، وبعضهم يقول غير ذلك، فهذا قول من قال: إنه ليس من الحروف المقطعة، وليس هذا مثل: {الم}، وإنما هي كلمة أخرى، إما على لغة بعض العرب، وإما أن أصلها أعجمي، وقد مضى الكلام في هل يوجد في القرآن شيء من المعرّب أو لا؟، وهذا الاختلاف في عزوِ ذلك إلى لغة من اللغات العربية أو غير العربية لم يمنع بعض أهل العلم من القول بأن ذلك لربما تواردت عليه هذه اللغات، وصار مستعملاً فيها جميعاً بهذا المعنى، ولذلك تجد في تفسير ابن جرير -رحمه الله- أنه يختار القول بأن {طه} بمعنى: يا رجل، ليس ذلك تفسيراً منه للحروف المقطعة بمثل هذه المعاني، وإنما باعتبار ما ذُكر، ومن عده من الحروف المقطعة قال فيه ما يقال فيها، وهو ظاهر صنيع ابن كثير -رحمه الله-، وأما الآثار التي تذكر في سبب نزول قوله -تبارك وتعالى- {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} -لا سيما أن بعضهم يقول: إن طه اسم من أسماء النبي -صلى الله عليه وسلم- فكل ذلك لا يصح فيه شيء، فالقول بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقوم حتى تتورم قدماه، فتكلم بسبب ذلك المشركون ونحو هذا، نعم النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه وهذا معروف، لكن هل كان هذا سبب نزول الآية؟ وأن المشركين تكلموا وقالوا: إنه قد نزل عليه القرآن ليشقى؟ لم يصح في ذلك شيء، وهكذا قول من قال: كانوا يربطون أنفسهم بالحبال، أو أنه كان يقف على صدور قدميه، كل هذا لم يصح، أو ما جاء من أنه كان يرفع قدمه من طول القيام، يتعب فيراوح بين القدمين، فنزلت الآية: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى}، كل هذا لم يصح، وكثير من المفسرين يذكرون هذه الروايات، وهو الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، باعتبار أن قوله: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} بمعنى: لتتحمل من العمل والعبادة ما لا تطيق، هذا المعنى على ما ذكره الحافظ ابن كثير، فهو يقصد هذا، وهذا لو صحت هذه الروايات أو بعضها، لكنها لم تصح، ولهذا فإن من أهل العلم من فسره بغير ذلك، قال: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} إنه كقوله: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [سورة الكهف: (٦)] قال: فهذا تسلية للنبي -صلى الله عليه وسلم- من أجل أن لا تذهب نفسه حسرات على المشركين؛ بسبب كفرهم وعنادهم وجحودهم ومكابرتهم وشدة عداوتهم، فهو يهون عليه من أجل أن لا يحزن ويضيق بسبب هذا التكذيب والإعراض {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ} [سورة الحجر: (٩٧)] فالله يقول: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى}، فإذا قلنا: إن الروايات السابقة غير صحيحة فتفسيرها بهذا -والله أعلم- أقرب من تفسيرها بما سبق، ومن أهل العلم من قال بأن الآية تحمل على هذا وهذا، ولربما كان ذلك لاعتقاده أن بعض هذه الروايات يصح، مثل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وهذا له وجه باعتبار أن الله -تبارك وتعالى- قال: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} وأطلق ولم يقيد، أي: ليحصل لك الشقاء، كيف يحصل هذا الشقاء؟ بأن يتحمل من العمل ما لا يطيق، وكذلك بأن يتحمل من الضغوط النفسية -كما يقال- ما يوهنه ويثقله ويرهقه وهذا واضح لكن قد يقول قائل: إن القيام بالتكاليف الشرعية والعبادات ليس بشقاء فالنبي

-صلى الله عليه وسلم- قال: ((وجعلت قرة عيني في الصلاة))[٢]، فيجد فيها لذة، فكيف يحمل على هذا المعنى؟ والجواب عن ذلك: أن المقصود -عند مَن ذكره- ليس هذا القدر من العبادة التي يطيقها الإنسان، وإنما إذا صار ذلك إلى حال يفضي به إلى الكلفة الزائدة، كالذي يربط نفسه بحبل يتعبد به مثلاً، أو يصوم النهار، ويقوم الليل أجمع، ونحو ذلك، لكن كل ذلك يتوقف على مقدمة وهي: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتحمل من الأعمال في التعبد ما يرهقه ويثقله، فهل كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يفعل ذلك؟ كان يصوم ويفطر، ويقوم وينام، وأرشد إلى هذا، ولكن حينما واصل ذلك الوصال في الصيام، وأرادوا أن يقتدوا به أخبرهم أنه ليس كهيئتهم وإنما يبيت يطعمه الله ويسقيه[٣].

فالقول بأنها في تحمل أعباء التكاليف وما أشبه ذلك: بناء على هذه الروايات، ولا يصح من هذه الروايات شيء، يبقى أن هذا المعنى تحتمله الآية، لكنه متوقف على هذه المقدمة وهي: هل كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتعبد تعبداً يفضي إلى كلفة زائدة بحيث إنه يخاطب بمثل هذا الخطاب {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى}؟، على كل حال هذه الآية فيها تسلية لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- بسبب ما كان يقاسيه من تكذيب قومه، واستهزائهم.

{إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى} إن الله أنزل كتابه وبعث رسوله رحمة رحم بها عباده ليتذكر ذاكر، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه.

وقوله: {تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى}، أي: هذا القرآن الذي جاءك يا محمد، هو تنزيل من ربك، رب كل شيء ومليكه، القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السموات العُلى في ارتفاعها ولطافتها.

وقوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته أيضاً، وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف: إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل.

قوله: {تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى}، تنزيلاً: هذا يمكن أن يعرب مفعولاً مطلقاً، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: وأن **المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف**، هكذا نقول: المسلك الأسلم وهو الأعلم والأحكم، وبعض الناس من المتكلمين يقول: إن مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم، وهذا غير صحيح، فالسلامة كل السلامة هي في مسلك السلف -رضي الله عنهم- كما أن هذا المسلك هو المسلك العلمي الصحيح؛ لأنه متلقى من مشكاة الوحي.

---

[٢] - رواه أحمد بن حنبل برقم: (١٤٠٣٧)، وقال محققوه: " إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الشيخين غير سلام أبي المنذر، فهو صدوق حسن الحديث"، والنسائي، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء برقم (٣٩٣٩)، وقال الألباني: صحيح، انظر صحيح الجامع رقم (٣١٢٤).

[٣] - رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع لقوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ} [سورة النساء: (١٧١)] برقم: (٦٨٦٩)، ومسلم كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم، برقم: (١١٠٣).

وقوله: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى}، أي: الجميع ملكه، وفي قبضته، وتحت تصرفه ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه وإلهه، لا إله سواه ولا رب غيره.

وقوله: {وَمَا تَحْتَ الثَّرَى} قال محمد بن كعب: أي ما تحت الأرض السابعة.

{وَمَا تَحْتَ الثَّرَى}، الثرى: هو الشيء الندي الذي فيه رطوبة، فالتراب الندي يقال له: الثرى، فقوله: {وَمَا تَحْتَ الثَّرَى} يعني: وما تحت التراب الندي، يعني: له ما فوق الأرض وما تحتها، ولا يقيد هذا بالأرض السابعة، {مَا تَحْتَ الثَّرَى} يشمل ذلك جميعاً إلى الأرض السابعة، يعني: له كل شيء، مع أن قوله -تبارك وتعالى-: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} يشمل هذا، فإن هذا الذي تحت الثرى هو من جملة ما في الأرض، ولكن ذلك جاء -والله أعلم- تأكيداً لسعة ملكه وشموله وأنه لا يخرج عنه شيء.

وقوله: {وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}، أي: أَنزل هذا القرآنَ الذي خلق الأرض والسموات العلىُّ الذي يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: {قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} [سورة الفرقان: (٦)] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} قال: السر: ما أسره ابن آدم في نفسه، {وَأَخْفَى} ما أُخفي على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كله، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد، وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: {مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [سورة لقمان: (٢٨)].

قوله: {فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}، السرَّ وأخفى من السرِّ، هذا المعنى الذي هو عليه الجمهور، يعني: وما هو أخفى من السر، وإن اختلفوا في المراد بما هو أخفى من السر، فبعضهم يقول: إن السرَّ هو ما حدَّث به الإنسان غيره، ولا يريد أن يطلع الناس عليه، وأخفى من السرِّ ما حدث به نفسه، وبعضهم يقول: السرُّ ما حدَّث به الإنسان نفسه، وأخفى من السر ما لم يحدِّث الإنسان به نفسه، وما دار بخلده من الأمور التي لم تقع والله -عز وجل- لم يطلعه عليها، ولم يعملها بعدُ، وسوف يعملها، كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا} [سورة لقمان: (٣٤)] فالأشياء التي تجري من الإنسان الله يعلمها، يعلم أنك اليوم في الساعة العاشرة صباحاً ستفعل كذا، وتقول كذا، مما لم يجر في خلدك الآن فذلك أخفى من السر، والسر هو الشيء الذي حدثت به نفسك، تقول الساعة الفلانية سأفعل كذا، سأقول كذا، سأذهب إلى كذا، هذا في سرك أنت، وأخفى من السر هو الشيء الذي لم تشعر به، ولم تعلم به مما أنت فاعله وقد علمه الله -عز وجل-، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وبعض أهل العلم -كالشنقيطي رحم الله الجميع- يحمل الآية على هذا جميعاً، فالله -عز وجل- يقول: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ} [سورة الملك: (١٤)] يعني: اللطيف الذي يعلم دقائق الأشياء، {الْخَبِيرُ} الذي يعلم بواطن الأمور وخفاياها، وهكذا الآيات المصرحة بعلم الله الشامل المحيط، {وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ} [سورة البقرة: (٢٨٤)] {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ} [سورة المجادلة: (٧)] إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على اطلاع الله -عز وجل- على ما يُسِره الإنسان، كما قال الله تعالى عن اليهود: {وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ} [سورة المجادلة: (٨)] على المعنيين: المعنى الأول: {وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ}، أي: أن الواحد يحدث بذلك نفسه، ويقول: لو كان نبياً لعذبنا الله بما نقول له: السام عليك،

والمعنى الثاني: {وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ}، أي: يقول بعضهم لبعض سراً إذا خلوا: لو كان نبياً لعُذبنا، ولاستجيب له فينا؛ لأنه يقول: وعليكم، وهكذا الله تعالى يقول: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} [سورة ق: (١٦)] فكل هذه الآيات تدل على هذه المعاني، وهكذا ما سيكون من الإنسان، وما لم يكن لو كان كيف يكون، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} [سورة التوبة: (٤٧)] فهم لم يخرجوا، ويقول عن المنافقين لما وعدوا يهود بني النضير بالنصر، يقول: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ} [سورة الحشر: (١١)]، فهذا من السر الذي قالوه لهم، إلى أن قال الله -عز وجل-: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ}[سورة الحشر: (١٢)] فذكر ما دار بينهم سراً، وذكر أمراً لم يكن، لو كان كيف يكون، وهكذا، على كل حال فقوله: {وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} المعنى: يعلم السر وما هو أخفى من السر، وبعضهم يفسر أخفى باعتبار أنه فعل ماضٍ، وهذا قول ضعيف، هذا خارج عن ذلك كله، يقول: يعلم السر وأخفى، أخفى ذلك فلم يطلع عليه أحداً، وهذا غير صحيح، بل هو أفعل تفضيل {يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى}، يعني: وما هو أخفى من السر، كما تقدم.

وقوله: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى}، أي: الذي أنزل عليك القرآن هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى.

الحسنى تأنيث الأحسن، وأنها البالغة في الحسن غايته، في ألفاظها ومعانيها.

{وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى} [سورة طه: (٩-١٠)] **من هنا شرع -تبارك وتعالى- في ذكر قصة موسى -عليه السلام-، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعدما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم، وسار بأهله قيل: قاصداً بلاد مصر بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضلّ الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في برد وشتاء وسحاب وظلام وضباب.**

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى}؟ هذا الاستفهام للتقرير، بمعنى: أليس قد أتاك حديث موسى؟، يقول: **فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية**، من أين أخذ أنه أضل الطريق؟ أخذه من هذه الآية أنه قال: {أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى}، يعني: أجد أحداً يهديني ويدلني على الطريق، وفي الروايات الإسرائيلية: أن موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما ذهب إلى مدين لم يكن يعرف الطريق إلى مدين، وحينما رجع إلى مصر لم يكن يعرف أيضاً الطريق، فالله أعلم، وقوله هنا: **وكانت ليلة شاتية** أخذه من الآية الأخرى، وهي قوله: {لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} [سورة النمل: (٧)].

وجعل يقدح بزند معه ليُوريَ ناراً كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئاً ولا يخرج منه شرر، ولا شيء، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً، أي: ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم: {إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ} أي شهاب من نار.

{إِنِّي آنَسْتُ} يعني: أبصرت، قد تقول: آنست صوتاً، أي: سمعت، وآنست شيئاً أو آنست رجلاً أو نحو ذلك بمعنى: أبصرته، وبعضهم يخص "آنس" بالمرئيات دون غيرها، يقول: هو الإبصار البيِّن، {آنَسْتُ نَارًا}، يعني: أبصرت ناراً، وعلى كل حال يقول: {إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ} **أي: شهاب من نار**، بعضهم يقول: شعلة من النار، وابن جرير -رحمه الله- يقول: القبس هو: العود أو القصبة التي في طرفها نار.

وفي الآية الأخرى: {أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ} [سورة القصص: (٢٩)] وهي الجمر الذي معه لهب {لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} دل على وجود البرد.

وقوله: {بِقَبَسٍ} دل على وجود الظلام، وقوله: {أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى}، أي: من يهديني الطريق، دل على أنه قد تاه عن الطريق، كما قال الثوري عن أبي سعيد الأعور عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى}، قال: من يهديني إلى الطريق، وكانوا شاتين وضلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق أتيتكم بنار توقدون بها.

{فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى} [سورة طه: (١١-١٦)].

يقول تعالى: {فَلَمَّا أَتَاهَا} أي النار، واقترب منها {نُودِيَ يَا مُوسَى} وفي الآية الأخرى {نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ} [سورة القصص: (٣٠)] وقال هاهنا: {إِنِّيَ أَنَا رَبُّكَ}، أي: الذي يكلمك ويخاطبك، {فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ} قال علي بن أبي طالب وأبو ذر وأبو أيوب -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- وغير واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذكي، وقيل: إنما أمره بخلع نعليه؛ تعظيما للبقعة.

مثل هذا -وإن قال به بعض السلف- أنها من جلد حمار غير ذكي: مما تُلقي عن بني إسرائيل، بل إن بعضهم يقول: إنها كانت من جلود البقر، ومثل هذا لا يُعَوَّل عليه، ولهذا قال بعض أهل العلم: إنه أُمر بخلع نعليه؛ تعظيماً للبقعة، وبعضهم يقول: إن ذلك أبلغ في التواضع، وبعضهم يقول -وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-: من أجل أن يباشر بقدميه ذلك المحل المبارك، والأرض المباركة، ولهذا قال: {إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} فإن هذه تدل على التعليل، لكن تعليل ماذا؟ يمكن أن يكون تعظيماً للبقعة، ويمكن من أجل أنه مبارك، ويمكن أن يكون للتواضع، ويمكن أن يكون غير هذا.

وقوله: {طُوًى} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو اسمٌ للوادي، وكذا قال غير واحد.

وهذا هو الظاهر، أن طوى: هو اسم الوادي، وهو اختيار ابن جرير، وعلى هذا يكون {طُوًى} من قبيل عطف البيان.

فعلى هذا يكون عطف بيان، وقيل: عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه.

{إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى}، يعني: كأنه يأمره بأن يطأ عليه بقدمه، حتى في قوله: {طه} بعضهم يفسره بالوطء على القدمين، الذين يقولون: إنه ليس من الحروف المقطعة بعضهم يفسره بهذا، يقول: كان يطول

القيام ويقف على صدور قدميه، وبعضهم يقول: كان يرفع رجلاً ليراوح بين القدمين، وقال: لفظ {طه} يعني: طَأْ بقدمك، هكذا قالوا، لكن كل هذا يحتاج إلى دليل.

وقيل: لأنه قُدس مرتين، وطوي له البركة وكررت.

أي: من الطي، طُوي له البركة وكررت، {طُوى} لكن يتبادر -والله أعلم- ما سبق من أن طوى هو اسم الوادي.

والأول أصح كقوله: {إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} [سورة النازعات: (١٦)]، وقوله: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ كقوله: {إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي} [سورة الأعراف: (١٤٤)]، أي: على جميع الناس من الموجودين في زمانه.

باعتبار أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أفضل بلا شك، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أفضل من موسى -عليهم صلوات الله وسلامه.

وقد قيل: إن الله تعالى قال: يا موسى أتدري لم خصصتك بالتكليم من بين الناس؟ قال: لا. قال: لأني لم يتواضع إليّ أحد تواضعك، وقوله: {فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، أي استمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا} هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وقوله: {فَاعْبُدْنِي}، أي: وحّدني، وقم بعبادتي من غير شريك، {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي} قيل: معناه صلِّ لتذكرني، وقيل: معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لي، ويشهد لهذا الثاني ما روى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى قال: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي}))[٤]، وفي الصحيحين عن أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك))[٥].

{وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي}، يمكن أن يكون الذكر مصدراً مضافاً إلى المفعول، ويمكن أن يكون مضافاً إلى الفاعل، فالياء هذه قد تكون مفعولاً أو فاعلاً، فإذا أعربت فاعلاً، فالمعنى: لأذكرك في الملأ الأعلى، {لذكري} الياء فاعل، يعني: لأذكرك، والله -عز وجل- يقول: ((من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه))[٦]، وإذا أعربت مفعولاً، فالمعنى: لتذكرني بها، باعتبار أن الصلاة مشتملة على الذكر، ويحصل بها من ذكر القلب مع ذكر اللسان إذا تواطأ القلب مع اللسان، والمعنى الثاني الذي ذكره ابن كثير وهو ((من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها)) قد لا ينسجم مع هذين التفسيرين، ولهذا ابن جرير -رحمه الله- يرده، لأنه لو كان كذلك لقال: "وأقم الصلاة لذكرها"، يعني: إذا تذكرتها، لكن اعتراض

---

[٤] - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، برقم: (٦٨٠).

[٥] - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، برقم: (٦٨٤).

[٦] - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {ويحذركم الله نفسه}[آل عمران: ٢٨] برقم (٦٩٧٠)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى، برقم (٢٦٧٥)، وأحمد بن حنبل: (٣٥٤/٢) برقم: (٨٦٣٥).

ابن جرير -رحمه الله- هنا يرده الحديث، والتفسير إذا جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فإنه لا يعارَض برأي ولا اجتهاد، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر الآية عند قوله: ((من نام عن صلاة أو نسيها)) لكن يبقى النظر وهو أن قول النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا هل هو حصر للمعنى فيه، أو هو من جملة ما يدخل في معنى الآية؟ هذا هو الأقرب أنه من جملة ما يدخل في معنى الآية، والآية قد تكون في معنى على سياقها، وتُحمل على معنى آخر، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما قال عليٌّ : "إن أرواحنا بيد الله"، رجع وهو يضرب فخذه ويقول: {وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا} [سورة الكهف: (٥٤)][٧]، مع أنها في جدل الكفار وتكذيبهم للقرآن ووحي النبوة والتوحيد، وهكذا في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غُرْلاً))، ثم قرأ: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [سورة الأنبياء: (١٠٤)][٨]، مع أن سياق الآية في الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى، وهكذا: {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ} [سورة التوبة: (١٠٨)] فهذا السياق لقباء، ولما اختلف العوفي مع الخدري وجاءوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((هو مسجدي هذا))[٩]، فهذا يحمل باعتبار أن مسجده -صلى الله عليه وسلم- أحق بهذا الوصف من مسجد قباء، ولا ينفي ذلك كون الآية في مسجد قباء، فهنا: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي} الحديث صريح في الربط بين الآية وبين ((من نام عن صلاة أو نسيها))، فلا يقال: لو كان ذلك صحيحاً لقال: لِذِكْرها، فهذا المعنى داخل فيه، وكذلك أيضاً ما سبق من تفسير المصدر بأنه هنا مضاف إلى الفاعل أو إلى المفعول، {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي}، أي: لتذكرني بها، أو {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي}، أي: لأذكرك، فكون المصدر هنا مضافاً إلى المفعول أوضح في المعنى وأقرب، وهو المتبادر، لكن القرآن يعبر فيه بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فيمكن أن يقال -والله أعلم-: إن المصدر هنا محمول على المعنيين، أقم الصلاة لذكري: لتذكرني، وإذا ذكر العبد ربه فإن الله يذكره، فهذه المعاني متلازمة، ((من ذكرني في ملأ ذكرته)) إلى آخره، وهكذا أيضاً فسره النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه: ((من نام عن صلاة أو نسيها))، فعلى هذا التفسير تكون اللام للتوقيت {لِذِكْرِي}، يعني: لوقت تذكرك، مثل: {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ} [سورة الإسراء: (٧٨)] اللام للتوقيت، ويحتمل أن تكون اللام تعليلية على المعنيين الأوليْن، {لِذِكْرِي}، أي: لأجل أن أذكرك أو لأجل أن تذكرني، فاللام تحتمل هذا وهذا، وابن القيم -رحمه الله- حمل الآية على الجميع؛ لما بين المعنيين الأوليْن من الملازمة في تفسير المصدر، والمعنى الثالث هو الذي جاء في الحديث.

---

[٧] - رواه البخاري، أبواب التهجد، باب تحريض النبي -صلى الله عليه وسلم- على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب وطرْق النبي -صلى الله عليه وسلم- فاطمة وعليا -عليهما السلام- ليلةً للصلاة: برقم: (١٠٧٥)، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح: برقم: (٧٧٥).

[٨] - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا} [سورة الأنبياء: (١٠٤)] برقم: (٤٤٦٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة برقم: (٢٨٦٠).

[٩] - رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، (٢٨٠/٥) برقم: (٣٠٩٩)، وصححه الألباني، صحيح الترغيب والترهيب (٢٢/٢)، رقم (١١٧٧).

وقوله: {إِنّ السّاعَةَ آتِيَةٌ}، أي: قائمة لا محالة، وكائنة لابد منها.

وقوله: {أَكَادُ أُخْفِيهَا}، قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أنه كان يقرؤها: أكاد أخفيها من نفسي.

وهذا على عادة العرب إذا أرادوا المبالغة في بيان كتمان شيء يقول الواحد منهم: أكاد أخفيه من نفسي؛ لشدة إخفائه، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وفي الآية أقوال أخرى، وبعضهم فسر {أُخْفِيهَا} بمعنى أظهرها، وبعضهم فصل في المعنى فقال: إن قوله {أَكَادُ} متعلق بما قبله {إِنّ السّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ}، يعني: أن أقيمها، باعتبار مقدر محذوف، وهذا خلاف الأصل، ثم قال: {أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ} وهذا تكلف.

يقول: لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {أَكَادُ أُخْفِيهَا} يقول: لا أُطْلع عليها أحداً غيري.

وقال: {ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً} [سورة الأعراف: (١٨٧)]**، أي: ثقل علمها على أهل السموات والأرض.**

وقوله -سبحانه وتعالى-: {لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى}، أي: أقيمها لا محالة لأجزي كل عامل بعمله {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [سورة الزلزلة: (٨)]**، {إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}** [سورة الطور: (١٦)]**، وقوله: {فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا} الآية، المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين، أي: لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة وأقبل على ملاذه في دنياه، وعصى مولاه واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر {فَتَرْدَى}، أي: تهلك وتعطب، قال الله تعالى: {وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى}** [سورة الليل: (١١)].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى وآله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى* فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى} [سورة طه:١٧-٢١]، هذا برهان من الله تعالى لموسى -عليه السلام-، ومعجزة عظيمة، وخرق للعادة باهر دل على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله -عز وجل-، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل.

وقوله: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى}، قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له، وقيل: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها فسترى ما نصنع بها الآن، {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى}، استفهام تقرير، {قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا} أي: أعتمد عليها في حال المشي، {وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي} أي: أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي، قال عبد الرحمن بن القاسم عن الإمام مالك: الهش أن يضع الرجل المحجن في الغصن ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود، فهذا الهش ولا يخبط، وكذا قال ميمون بن مهران أيضاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى}، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له**"، أي: أنه قبل أن يرسله إلى فرعون وأن يخاطبه بما خاطبه به من أمر الرسالة أراد أن يزيل عنه الوحشة فسأله عن أمور ليست هي المقصودة، هذا مقصود قول من قال: إنه على سبيل الإيناس، كمن أردت أن تحدثه أو تحادثه عن أمر وهو في حال من الخوف والارتباك فسألته عن أمور أخرى ليست هي المقصودة من أجل الإيناس، ثم بعد ذلك تتحدث معه عن المقصود، لهذا يوجد في كتاب الحيدة وإن لم يثبت من جهة الإسناد في أول ذلك سؤالات عن بعض الأمور في المكان الذي جلس فيه الخليفة، وسؤاله عن بعض الشقوق في الجدران ونحو ذلك، قبل أن يسأل عن موضوع القرآن، والقول بخلق القرآن، فيما يذكر عن عبد العزيز الكناني لو صحت القصة، يقول: "**وقيل إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها فسترى ما نصنع بها الآن**"، بمعنى: قرره بأنها عصا، وأنها ليست أكثر من ذلك، والعصا لا حياة فيها ولا روح، فقرره بذلك من أجل أن يقول: هي عصاي، ثم بعد ذلك يريه منها حالاً أخرى لا يمكن أن تكون هذه العصا بهذه المثابة إلا بطريق المعجزة، هذا مراد من قال بأنه على سبيل التقرير، أليست هذه هي عصا؟، ولهذا قال بعضهم: وهذا لا يختلف عما قبله بأن المراد التنبيه عليها لتقع المعجزة فيها بعد التثبت فيها والتأمل، أراد أن يلفت نظره إليها، لما سيقع بعد ذلك

من المعجزة بها، وهذا لا شك أنه هو المناسب في تفسير الآية خلاف قول من قال بأن المقصود بذلك الإيناس، لو كان مجرد الإيناس لكن ذلك من غير وقوع المعجزة في العصا، وقوله: {وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي}، يقول: "**أي أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي**"، ونقل "**عن الإمام مالك: الهش أن يضع الرجل المحجن في الغصن**"، والمحجن هو العصا التي في طرفها انحناء، معطوفة من طرفها، يقول: "**ثم يحركها حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود، فهذا الهش، ولا يخبط**"، الخبط الضرب، فيتساقط الورق، هكذا قال الإمام مالك، مع أن هذا ليس محل اتفاق كثير من أهل العلم، وهو اختيار ابن جرير: فسره بالخبط، يخبط الشجر فيتساقط الورق، وقرأه نافع بالسين "أهس"، وفُسر بالمعنى السابق، قال بعضهم: هما لغتان، وبعضهم فسره بزجر الغنم.

وقوله: {وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى}، أي: مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك، وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التي أبهمت.

ألف البعض رسالة –مجلداً- في منافع العصا، ومثل هذا لا شك أنه من الترف الفكري كما يقال، والاشتغال بأمور قليلة الفائدة، ما هي فوائد العصا؟! والرجل الذي ذكر فوائد العصا ذكر جملة كثيرة منها في كلامه، فهو يتوكأ عليها، ويهش بها غنمه، ويخبط بها الشجر، وتكون بين يديه في الصلاة، ويدفع عن نفسه بها الكلاب والسباع، ويطاعن بها العدو، ويضع عليها رداءه فتكنه من الشمس، ومن المطر، وهذه العصا يحصل بها أمور أخرى كثيرة ذكرها لا حاجة للتطويل في هذا، يقول: {وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى} حاجات أخرى، ما يحتاج إليه في العصا، ومن الناس من يحمل العصا عادة، وسواء كانت عصا أو دِرة أو نحو ذلك، ومعلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لربما توكأ على عسيب، ولربما كانت بيده، فتوضع بين يديه العنزة –رمح صغير– في الصلاة، وعمر -رضي الله عنه- كان يحمل الدرة كثيراً، ولا زال في بيئات من المروءات ومن الكمالات في الزي ونحو ذلك أن يحمل الإنسان العصا، ربما لا زال هذا موجوداً في السودان إلى اليوم، من كمال الزي أن الإنسان يحمل معه عصاً.

وقوله تعالى: {قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى}، أي: هذه العصا التي في يدك يا موسى ألقها، قال: {فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى}، أي صارت في الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً يتحرك حركة سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركةً ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر وفي غاية سرعة الحركة، {تَسْعَى}، أي: تمشي وتضطرب.

قال تعالى: {سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى} أي إلى حالها التي تعرف قبل ذلك.

قوله: {فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى} ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: "**صارت في الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً يتحرك حركة سريعة**"، هذا جمع بين الآيات الواردة {فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ} [سورة الأعراف:١٠٧]، وبين قوله: {كَأَنَّهَا جَانٌّ} [سورة النمل:١٠] والجان صغير الحيات، وهو سريع الحركة جداً، والثعبان الحية العظيمة، ويجمع بين وصف هذه الحية بأنها جان أو كأنها جان، وبين كونها ثعبان مبين بما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فهي ضخمة جداً فهي ثعبان، وهي سريعة الحركة، فلسرعة حركتها وصفها بهذا الوصف {كَأَنَّهَا جَانٌّ}.

وقوله: {تَسْعَى}، أي: تمشي وتضطرب، وقوله: {سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى}، يعني: إلى حالتها السابقة، يقال لكل من كان على أمر فتركه: رجع سيرته، وإلى سيرته، ورجع لسيرته، يعني: إذا رجع لما هو عليه، يعني: ترجع عصا.

{وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُواْ قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً} [سورة طه:٢٢-٣٥]، **وهذا برهان ثانٍ لموسى -عليه السلام- وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه كما صرح به في الآية الأخرى، وهاهنا عبر عن ذلك بقوله: {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ}، وقال في مكان آخر: {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ} [سورة القصص:٣٢]، وقال مجاهد: {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ} كفك تحت عضدك، وذلك أن موسى -عليه السلام- كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر، وقوله: {تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} أي: من غير برص ولا أذى، ومن غير شين، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك والسُدي وغيرهم، وقال الحسن البصري: أخرجها والله كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه -عز وجل-، ولهذا قال تعالى: {لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى}.**

يقول: {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ}، وقال في مكان آخر: {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ}، يقول: "**قال مجاهد {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ} كفك تحت عضدك**"، الجناح فسره بعضهم -كالفراء والزجاج- بالعضد، وفسره بعضهم -كقطرب- بالجانب، والله -عزوجل- يقول: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} [سورة الإسراء:٢٤]، يعني: واخفض لهما جناحك الذليل، فُسر بالجانب، يعني: واخفض لهما جانبك، يعني: تواضع، وهذه الأقوال -والله أعلم- لا منافاة بينها، فالذين يقولون هو الجانب، أو الذين يقولون هو العضد، فإن العضد يكون بجانب الإنسان، فالعضد يكون بجانب الإنسان، حتى إن من أهل العلم في تفسير قوله: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} من قالوا: إن الإنسان إذا أراد أن يبطش فإنه يرفع يديه، وهكذا قالوا بأن العضد أو اليد من الإنسان، وكذلك أيضاً الجانب هو محل الجناح من الطائر، فإذا قال: {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ} أو {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ} يعني: إلى جانبك، فإذا ضم يده إلى جانبه فإن ذلك هو محل العضد كما هو معروف، ففي قوله -تبارك وتعالى-: {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ} فهذا يحصل به كمال الطمأنينة، ويذهب عنه الخوف، وفي قوله -تبارك وتعالى-: {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ} تخرج بيضاء، يعني: أنها تخرج بهذه الصفة، بعضهم يقول: كأنها قطعة قمر، {مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}، أي: من غير علة ولا داء أو برص أو نحو ذلك، فهذه آية يراها الناس، وإذا ضم إليه جناحاه حصل له من الطمأنينة وزال عنه وتلاشى الخوف، وهذا يحتاج إليه في دعوة فرعون ومخاطبته، فهذه آية أخرى لموسى -صلى الله عليه وسلم- قد لا يطلع عليها الناس، لكن إخراج اليد بيضاء هذه آية يرونها ويشاهدونها.

وقوله: {اذْهَبْ إِلَىَ فِرْعَوْنَ إِنّهُ طَغَىَ}، أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر الذي خرجتَ فاراً منه وهاربا فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا، ونسي الرب الأعلى.

كل من تجاوز حده فإنه يوصف بأنه طغى، {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء} [سورة الحاقة:١١]، يعني: تجاوز الحد، حصل ما حصل من الغرق والطوفان.

{قَالَ رَبّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسّرْ لِيَ أَمْرِي} هذا سؤال من موسى -عليه السلام- لربه -عز وجل- أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره، هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم في حجر فرعون على فراشه، ثم قتل منهم نفساً، فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها، ثم بعد هذا بعثه ربه -عز وجل- إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله -عز وجل- أن يعبدوه وحده لا شريك له، ولهذا قال: {رَبّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسّرْ لِيَ أَمْرِي}، أي: إن لم تكن أنت عوني ونصيري وعضدي وظهيري وإلا فلا طاقة لي بذلك.

{وَاحْلُلْ عُقْدَةً مّن لّسَانِي * يَفْقَهُواْ قَوْلِي} وذلك لما كان أصابه من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية بل بحيث يزول العيّ، ويحصل لهم فَهْم ما يريد منه، وهو قدر الحاجة ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ} [سورة الزخرف:٥٢]، أي: يفصح بالكلام.

قوله: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي} هذا يحتاج إليه في الدعوة مع مثل هذا المتكبر، العاتي عن الله -تبارك وتعالى-، فإن من يدعي الربوبية وينكر ويكابر يقول: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [سورة القصص:٨٨]، مثل هذا لا تطيق النفوس رؤيته ولا سماع كلامه، فيحتاج من أراد أن يدعو أمثال هؤلاء إلى انشراح، بل كل من أراد أن يقبل على أمر من الأمور فهو يحتاج إلى ذلك، ولهذا يقال فيمن أراد أن يتصدر للدعوة لاسيما دعوة من يصدر منهم الكلام الفج، والفعال القبيحة التي تُظلِم معها النفوس عند سماعها، فإن مثل هذا يحتاج إلى شرح صدر وما كل أحد يطيق ذلك، ما كل أحد يصلح لهذا، وإذا قرأت لكتابات هؤلاء اللبراليين مثلاً ورأيت الطعن في الدين واللمز والسخرية من الحجاب والدعوة إلى الفساد والاختلاط، والكتابات التي كلها ربما لا تصدر إلا عن نفس متمردة على الله -عز وجل- الإنسان تضيق نفسه حين يقرأ هذا، ويجد من الألم والحسرة الشيء الكثير، ومن أراد أن يدعو هؤلاء فإنه يحتاج إلى شيء من سعة الصدر، والصبر أكثر من غيره ممن يدعو أناساً لهم شيء من الغفلة، فإن رؤية هؤلاء لا تطاق، وقراءة ما يكتبون أمر لا يطاق بحال من الأحوال، وما كل أحد يصبر على مثل هذا، ولا على مطالعة ما يقولون وقراءته، نسأل الله العافية.

وقوله تعالى: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي}، يقول: {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي}، ما يُذكر من أن موسى -عليه الصلاة والسلام- في الصغر لما خافه فرعون، يذكرون في هذا أشياء، يقولون: إنه كان وهو صغير يشد لحية فرعون بقوة، وإن فرعون خاف، فهَمّ بقتله فقالت امرأته: إنه لا يفقه، صغير، واختبروه بوضع تمرة وجمرة، وإن الله -تبارك وتعالى- ألهمه أخذ الجمرة من أجل أن يصرفهم عنه، هذا يذكر كثيراً في كتب التفسير، ولكن لا أعلم له مستنداً صحيحاً، وموسى -عليه الصلاة والسلام- كان فيه هذه العقدة في لسانه وقوله: {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي} ما ذكر هنا من المعنى صحيح باعتبار أنه ما سأل رفع ذلك أجمع، وإنما الحدّ الذي يحصل به الإبانة والإفهام للمخاطبين، بدليل أن فرعون قال: {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}، ففرعون مكابر وكذاب، لكن يدل على هذا أن موسى -صلى الله عليه وسلم- لما طلب أن يرسل الله معه هارون علل ذلك ومن جملة ما علل به قال: {هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا} [سورة القصص:٣٤]، فهذا يدل على أنه بقي شيء من ذلك، والله أعلم.

وقوله: {وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي} وهذا أيضاً سؤال من موسى -عليه السلام- في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له، قال الثوري عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: فنُبِّئ هارون ساعتئذ حين نُبِّئ موسى -عليهما السلام-، وروى ابن أبي حاتم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب، فسمعت رجلاً يقول: أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه؟ قالوا: لا ندري، قال: أنا والله أدري، قالت: فقلت في نفسي: في حلفه لا يستثني، إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله، قلت: وفي هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى -عليه السلام-: {وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا} [سورةالأحزاب:٦٩].

وقوله: {اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي} قال مجاهد: ظهري، {وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي}، أي: في مشاورتي، {كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً} قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وقوله: {إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً}، أي: في اصطفائك لنا وإعطائك إيانا النبوة، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك.

قوله: {اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي} الأزر هو القوة، وقرأه ابن نافع {أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأُشْرِكْهُ فِي أَمْرِي}، والفرق بين القراءتين واضح، قراءة الجمهور: أن هذا من جملة السؤال، {وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي}، وعلى القراءة الثانية أنه سأل أن يبعث معه هارون -عليه السلام-، وعلل ذلك الطلب بقوله: أشدد وأُشركه.

{قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً} [سورة طه:٣٦-٤٠]، **هذه إجابة من الله لرسوله موسى -عليه السلام- فيما سأل من ربه -عز وجل-، وتذكير له بنعمه السالفة عليه فيما كان من أمر أمه حين كانت**

ترضعه وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه؛ لأنه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان، فاتخذت له تابوتاً، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه وترسله في البحر وهو النيل، وتمسكه إلى منزلها بحبل، فذهبت مرة لتربط الحبل فانفلت منها وذهب به البحر، فحصل لها من الغم والهم ما ذكره الله عنها في قوله: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا} [سورة القصص:١٠]، فذهب به البحر إلى دار فرعون {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً} [سورة القصص:٨]، أي: قدراً مقدوراً من الله حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل حذراً من وجود موسى، فحكم الله -وله السلطان العظيم والقدرة التامة- أن لا يربى إلا على فراش فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه مع محبته وزوجته له، ولهذا قال تعالى: {يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي}، أي: عند عدوك جعلته يحبك، قال سلمة بن كهيل {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي}، قال: حببتك إلى عبادي، {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} قال أبو عمران الجوني: تربى بعين الله.

وحينما طلب من ربه قال: {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي}، وقال: {رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي}، وقال: {وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي} كل هذه الأشياء، فقال الله: {قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى}، فهذا كله إنعام من الله -عز وجل- على موسى -عليه الصلاة والسلام-، ثم ذكّره بنعمة أخرى، {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى} وذلك في حال صغره مما جرى له، قال: {إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى} والتعبير بالاسم الموصول يفيد التعظيم، {مَا يُوحَى} كما قال الله -عز وجل-: {فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ} [سورة طه:٧٨]، يعني: شيء عظيم هائل، وهكذا في قوله: {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} [سورة النجم:١٠]، كل ذلك يفيد تعظيم هذا الأمر، قال: {أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ}، التابوت: الصندوق، واليم: يقال للبحر، وكذلك النهر الكبير يقال له اليم، {فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ} فليلقه: هذا أمر، واللام لام الأمر، {فَلْيُلْقِهِ} يحتمل أن يكون هذا من قبيل الأمر على ظاهره، فصيغته صيغة الأمر، والمراد أيضاً الأمر، ويكون هذا الأمر من قبيل الأمر الكوني، أن الله -عز وجل- أمر هذا الماء بأن يتصرف بهذا التابوت بما أراد الله -تبارك وتعالى- فيصل إلى فرعون، ويحتمل أن يكون هذا الأمر {فَلْيُلْقِهِ} الصيغة فيه صيغة أمر ولكن المعنى ليس كذلك، يعني: لا يراد به الأمر، وإنما معناه الخبر، وجيء به بصيغة الأمر مبالغةً، وذلك أن الأمر كما يقول بعضهم: هو أقطع الأفعال، {فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ} هذا خبرٌ محقق، وجاء به بصيغة الأمر، والساحل قيل له ذلك: لأن الماء سحله، وأما ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وذكره الكثير من المفسرين من أن أم موسى كانت تربطه بحبل فإذا خافت عليه عيون فرعون تتركه في الماء، فإذا أمنت سحبت هذا التابوت وأرضعته، هذا لا دليل عليه، وإنما هو مما تُلُقي عن بني إسرائيل، وظاهر القرآن يدل على خلافه، فالله -تبارك وتعالى- أخبرنا أنه أوحى إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، وقال لها: {وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [سورة القصص:٧] هذا يدل على أنها تلقيه في اليم، وقال الله -عز وجل- أيضاً: {يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ}، فإلقاؤه باليم ليس بهذه الطريق -أنه يربط بحبل تخوفاً عليه-، هذا بأمر الله -عز وجل- وطمأنها وخبّرها -كما سيأتي في تفسير الآية في موضعه إن شاء الله- أنه أمرها بأمرين، كما تضمنت الآية خبرين وبشارتين، تضمنت أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين، {أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ

فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ}، هذان أمران، {**وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي**} هذان نهيان، {**إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**} هذان خبران وبشارتان، فالذي يظهر أنها أمرت أن تلقيه في اليم، فيحمله اليم إلى فرعون، وليس ما ذكر من أنها تربطه ثم بعد ذلك انفلت منها، فحزنت لذلك، وفي قوله: {**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي**}، يقول: "**حببتك إلى عبادي**"، هذا هو المشهور، وبعضهم يقول: كان في وجهه صباحة وملاحة، وبعضهم يقول: في عينيه ملاحة، وكل هذا لا حاجة إليه، فالله -عز وجل- يقول: {**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي**}، والقول الآخر: {**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي**} أي: أن الله أحبه، محبة صادرة من الله -تبارك وتعالى-، يعني: ألقيت مني عليك محبة، أحببتك، وابن جرير -رحمه الله- يقول: ألقى الله محبته على موسى، والقولان بينهما ملازمة؛ وذلك أن الله -عز وجل- إذا أحب عبداً أمر جبريل أن يحبه، فيحبه جبريل فينادى في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض[1]، فالله إذا أحب عبداً حببه إلى قلوب الخلق، وإذا أبغض عبداً بغضه إلى قلوب الخلق، فالقولان متلازمان ولا حاجة إلى الترجيح بينهما، يعني: قول من قال كابن جرير {**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي**} أي: أن الله أحبه لا يخالف قول من قال بأنه وضع له المحبة في قلوب الخلق؛ لأن ذلك ينتج وينشأ عن محبة الله -عز وجل- في العبد.

وقوله: {**إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا**}، **وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع، فأباها، قال الله تعالى**: {**وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ**} [سورة القصص:١٢]، **فجاءت أخته، وقالت**: {**هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ**}، **تعني: هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة؟، فذهبت به -وهم معها- إلى أمه فعرضت عليه ثديها، فقبله، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه، فنالها بسببه سعادة، ورفعة، وراحة في الدنيا، وفي الآخرة أعظم وأجزل، وقال تعالى هاهنا**: {**فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ**}، **أي: عليك**، {**وَقَتَلْتَ نَفْساً**}.

في قوله -تبارك وتعالى-: {**إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ**} بين الله -عز وجل- في موضع آخر أن ذلك كان بأمر أمه، حيث قالت لأخته: {**قُصِّيهِ**}[سورة القصص:١١]، يعني: أنها تقص أثره -تبحث عنه-، ولما رأته وأبصرته لم تُعر ذلك اهتماماً، وإنما كأنها رأته رؤية عارضة، عن جُنب: يعني: أنها لم تلتفت إليه، ولم تقبل عليه إقبال من يعرفه، وإنما كأنه شيء عارض لا يعنيها، فقالت لهم: {**هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ**}، ويذكر المفسرون: أنهم سألوها -والله تعالى أعلم- عن ذلك، يعني: كيف عرفتِ نصحهم؟ فشكّوا في هذا، وأنها قالت: إنهم ينصحون له من أجل إسعاد الملك، يعني: رغبة في إسعاده، ورجاء -أيضاً- عائدته وعطائه، والله تعالى أعلم بهذا كله، وبعضهم يقول: إنهم سألوها: من أين أتى اللبن لهذه المرأة؟ فقالت: من أخي هارون، وهارون -عليه الصلاة والسلام- أكبر من موسى، فيقولون: إنه

---

١ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٠٣٧)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده، برقم (٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه.

كان يرضع أيضاً، لم يكن يعني في نفس العمر لكن فيها لبن، ويمكن أن يقال: إنه يرضع؛ لأنه في سن الرضاعة.

وقال تعالى هاهنا: {فَرَجَعْنَاكَ إِلَىَ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ}، أي: عليك.

قال بعض أهل العلم في قوله: {تَقَرَّ عَيْنُها}: هذا من البرودة، القر والحر، فيعبر به عن الفرح والسرور، ويقولون: دموع الفرح باردة، ودموع الحزن حارة ساخنة، وإذا دعوا على إنسان قالوا: أسخن الله عينه، بمعنى: أنه تحصل له من الفجائع ما يحصل له به الحزن والألم، ولهذا تقول العرب في تشبيهها وأمثالها: أسخن من عين المقلاة، يعني: المرأة التي لا يعيش لها ولد، فعينها ساخنة، يعني: من شدة التوجع والحزن على موت أولادها.

{وَقَتَلْتَ نَفْساً} يعني القبطي {فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ} وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففر منهم هارباً حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: {لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}.

أي نعم، قد يكون من أجل هذا، من أجل أنه خاف على نفسه من قتلهم، وكذلك يدل عليه التنجية {فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ}، فهذا أحسن من تفسير من فسره بالقتل، بعضهم قال {فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ}: الغم هو القتل، وبعضهم يقول: إن الغم الذي حصل له بسبب أنه قتل هذا القبطي، ويمكن أن يكون هذا وهذا، يعني: هو حزِنَ، يقال: إن هذا وقع على سبيل الخطأ، يعني: أراد أن يضربه -لكن دون القتل-، فكانت هذه الضربة قاتلة، ولم يقصد قتله فحزن لذلك، وكذلك لما جاءه الرجل الذي يقول: {إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ} [سورة القصص:٢٠] أصابه بسبب هذا الغم، وكل ما يغم القلب يقال له: غم، فإذا كان على أمر فائت قيل له: الحزَن، فالحزَن هو اغتمام القلب من أمر فائت، وأما إذا كان في أمر المستقبل فهذا الذي يسمى بالخوف، وهذا الفرق بين الحزَن والخوف، وإن كان قد يستعمل أحدهما في محل الآخر قليلاً، كما قال الله -عز وجل- عن أهل الجنة: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} [سورة فاطر:٣٤] فسر بالخوف والإشفاق من الدار الآخرة؛ لأنهم يقولون: {إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ} [سورة الطور:٢٦] والإشفاق هو خوف خاص، يعني: الخوف مع علم بالمخوف منه يقال له خشية، فإذا كان هذا الخوف رقيقاً قيل له: إشفاق، ويأتي بمعنى آخر أيضاً.

فائدة:

قوله: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}، بمعنى أن الله -تبارك وتعالى- هيأه ودبره هذا التدبير، ورعاه هذه الرعاية، وأنشأه هذه النشأة؛ ليقوم بأعباء الرسالة، والدعاء إلى الله -تبارك وتعالى-، يقال: فلان صُنع على عين الله، هذه تزكية، ولا نشهد لأحد بمثل هذه الشهادة، لكن من شهد الله -تبارك وتعالى- له نشهد له، فنقول: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلاً الله صنعه على عينه، ويمكن أن نقول: الصحابة -رضي الله عنهم- الله صنعهم على عينه، اختارهم لصحبة نبيه -صلى الله عليه وسلم-، أما آحاد الناس فحينما يقال: إن الله صنعه على عينه معنى ذلك أن هذه تزكية كبيرة جداً لهذا الإنسان، ربما تكون أبلغ من الشهادة له بالجنة؛ لأن الشهادة له بالجنة قد لا تقتضي أن يكون نشأ تلك النشأة ولا عمل أعمالاً معتبرة، إنما ختم له بخاتمة السعادة، أسلم فمات

مثل اليهودي الذي قال: أشهد أن لا إله إلا الله عند موته، فحينما يقال: فلان صنعه الله على عينه فهذا يعني أنه نشأ نشأة على عين الله -عز وجل-، وهذا صعب أن يقال لآحاد الناس، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيَ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىَ قَدَرٍ يَا مُوسَىَ * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي * اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَىَ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىَ * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىَ} [سورة طه:٤٠-٤٤]، يقول تعالى مخاطباً لموسى -عليه السلام-: إنه لبث مقيماً في أهل مدين فاراً من فرعون وملئه، يرعى على صهره حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدر الله وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله لله -تبارك وتعالى-، وهو المسيّر عباده وخلقه فيما يشاء، ولهذا قال: {ثُمَّ جِئْتَ عَلَىَ قَدَرٍ يَا مُوسَىَ} قال مجاهد: أي على موعد، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله: {ثُمَّ جِئْتَ عَلَىَ قَدَرٍ يَا مُوسَىَ} قال: على قدر الرسالة والنبوة.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ جِئْتَ عَلَىَ قَدَرٍ يَا مُوسَىَ}، يقول: "**قال مجاهد: أي على موعد**"، و"**عن قتادة قال: على قدر الرسالة والنبوة**"، بمعنى أنه جاء على الوقت الذي قدر الله -عز وجل- إرساله فيه كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، ويحتمل أنه جاء بوقت قدر الله -عز وجل- مجيئه فيه لا يتقدم ولا يتأخر، وهذه الأقوال متقاربة إذ أن كل شيء إنما هو بتقدير الله -تبارك وتعالى-، مجيء موسى -عليه الصلاة والسلام- بهذه الساعة التي جاء فيها لا شك أنه كان بتقدير الله، وجاء في الوقت الذي قدر الله -عز وجل- إرساله فيه، فلا منافاة بين القولين، أو بين هذه الأقوال، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}، أي: اصطفيتك واجتبيتك رسولاً لنفسي أي كما أريد وأشاء، وروى البخاري عند تفسيرها عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((التقى آدم وموسى فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟، فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال فوجدته مكتوباً عليّ قبل أن يخلقني، قال: نعم، فحج آدم موسى))[1] أخرجاه.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}، أي: أن الله -تبارك وتعالى- هيأه وأعده إعداداً خاصاً بعناية من أجل أن يكون متحملاً لأعباء الرسالة، وداعياً إلى الله يدعو هذا الذي طغى، وادعى الربوبية أو الإلهية.

وقوله: {اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي}، أي: بحججي وبراهيني ومعجزاتي، {وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: لا تبطئا، وقال مجاهد عن ابن عباس -رضي الله

---

١ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} [سورة طه:٤١]، برقم (٤٤٥٩)، ومسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى -عليهما السلام-، برقم (٢٦٥٢).

عنهما-: لا تضعفا، والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون؛ ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَنِيَا} والنيُ هو الضعف والفتور، {وَلاَ تَنِيَا} يقول هنا: "**عن ابن عباس: لا تبطئا**"، وقوله -أيضا-: " **لا تضعفا، والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون؛ ليكون ذكر الله عوناً لهما**"، هذا القول هو موافق لقول ابن جرير، والذكر هنا مصدر يشمل ذكر الله -تبارك وتعالى- بلسانه، كما أنه يشمل ذكره في العمل والفعل والقيام بوظائف العبودية، ومن ثم فسره بأن المراد: لا تقصرا، يعني: لا تضعفا، لا تنيا عن ذكري بالإحسان إليكما بالشكر، والشكر كما هو معلوم يشمل القلب واللسان والجوارح، وابن جرير -رحمه الله- يحمل ذلك على شكره بامتثال أمره واجتناب نهيه، وهذا يرجع إلى ما سبق، باعتبار أن الإنسان إذا قام بذلك فإن هذا أدعى وأقوم لثباته، وعون الله -عز وجل-: إعانة الله -تبارك وتعالى- له، وبعضهم يقول: المقصود به تبليغ الرسالة: {وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي} والذي يظهر -والله أعلم- أن ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- وذكره ابن جرير وأمثال هؤلاء: أقرب، والله تعالى أعلم.

وقوله: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}، أي: تمرد وعتا وتجبر على الله وعصاه، {فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} هذه الآية فيها عبرة عظيمة وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أُمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، فدعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل قريب رفيق؛ ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [سورة النحل:١٢٥]، وقوله: {لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} أي: لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، أو يخشى: أي يوجد طاعة من خشية ربه، كما قال تعالى: {لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} [سورة الفرقان:٦٢] فالتذكر الرجوع عن المحذور، والخشية تحصيل الطاعة.

أمر الله -تبارك وتعالى- بإلانة القول مطلقاً، وإلانة القول تكون في التلطف بالمخاطبة، ولهذا فيما قص الله -تبارك وتعالى- من خبر موسى -عليه الصلاة والسلام- مع فرعون أن الخطاب جاء ليناً، {فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى} [سورة النازعات:١٨] بأسلوب العرض، ولم يقل: أزكيك، {وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى}[سورة النازعات:١٩]، وهكذا في مواضع من هذا الخطاب، لو تتبعته في القرآن لرأيت ذلك جلياً، وبعضهم يقول: المراد بذلك القول اللين: هو أن يكنياه، وهذا الخطاب بالكنية فيه إلانة بلا شك، لكن ذلك لا ينحصر به إلانة القول، وقد يكون مخاطبة هذا الذي يدعي الإلهية بالكنية أمراً غير مرغوب بالنسبة إليه، هو يريد أن يخاطب بما هو أكبر وأعظم من هذا، بخلاف آحاد الناس، فإن العرب تحب الدعاء بالكنية، ثم الاسم، وآخر ذلك اللقب، وكانوا يكرهون أن يدعى الواحد منهم باللقب، لكن مثل هؤلاء قد تكون الكنية مفضولة بالنسبة إليه، يعني حينما يخاطب يقال له: أيها الملك، أو نحو هذا، وهذا يبدو أنه يريد أن يخاطب بأن يقال له: أيها الإله؛ لأنه يقول: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [سورة القصص:٣٨]، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} "لعل" هذه سبق الكلام عليها والجواب عن إشكال يرد في مثل هذا الاستعمال، والأصل في كلام الناس أنها تفيد معانيَ المشهور منها أنها تفيد الترجي، والترجي إنما يكون مما لا يعلم العواقب، فهذا

يكون مترجياً، فإذا قال الإنسان: لعل المطر ينزل، أو لعل زيداً يقدم أو نحو هذا يقوله؛ لأنه لا يعلم العاقبة هل يحصل هذا أو لا؟، أما الله -عز وجل- فهو عالم بكل شيء لا يخفى عليه خافية، والمراد كما يقول بعض أهل العلم: إن معناها التعليل -وهو أحد معانيها-، فيقول: كل لعل في القرآن فهي للتعليل إلا في موضع واحد، وهو قوله: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} [سورة الشعراء:١٢٩]، بمعنى: كأنكم تخلدون، فإذا قلنا بهذا انحلت هذه الإشكالات، وبعض أهل العلم يقول: إن المراد بها الترجي ولكن الخطاب في القرآن قد يخرج بحسب نظر المخاطب، يراعى فيه المخاطب وهذا أنواع: تارة لأن المخاطب يعتقد ذلك وإن كان المتكلم لا يعتقده، ولهذا تجد الكلام في القرآن أحياناً على آلهة المشركين أو نحو ذلك يستعمل معها الصيغة التي تستعمل للعقلاء، {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا} [سورة الأعراف:١٩٥] يمشون، ما قال تمشي، لأنهم جعلوها آلهة، {لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}، أي: على رجائكما، ومثل قول الله -عز وجل- عن بعث يونس -عليه الصلاة والسلام- إلى قوم قال: {مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} [سورة الصافات:١٤٧] أو يزيدون الله عالم بعدتهم، محيط بهم إحاطة كاملة لكن أحد الأجوبة عن هذا على هذه القاعدة أن الناظر إليهم يقول هذا، يعني: باعتبار حال المخاطب خرج الخطاب بهذه الصيغة، يعني: الناظر إليهم يقول: {مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}، فيكون على هذا الاعتبار: {لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}، أي: على رجائكما.

والتذكر يحصل بهذه المخاطبة والدعوة والتذكير فيتعرف الإنسان ويتفطن ويرجع إلى ما كان غافلاً عنه، أو يخشى كما يحصل من البعض فيخاف من الله -تبارك وتعالى-، فالتذكر قد يورث الخشية، لكن التذكر ليس معناه الخشية، وإنما يحصل بالتذكر طرد الغفلة، والذهول، وما شابه ذلك، فالخشية تكون ناتجة عن ذلك، فالإنسان يتفكر ويحصل له من جراء ذلك التذكر، ويتذكر ويحصل له من جراء ذلك التفكر، وأما الخشية فهي نتيجة للتذكر والتفكر، فإن الإنسان قد يكون غافلاً فإذا حصل له هذا التذكر رجع وخشي الله -تبارك وتعالى-، والخشية هي خوف مع علم بالمخوف منه.

وقوله -عز وجل-: {قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىَ * قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىَ * فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيَ إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَىَ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىَ * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىَ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىَ} [سورة طه: ٤٥-٤٨]، **يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون -عليهما السلام-، أنهما قالاً مستجيرين بالله تعالى شاكيين إليه**: {إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىَ} **يعنيان أن يبدر إليهما بعقوبة أو يعتدي عليهما فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك، وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أو أن يطغى: يعتدي.**

الطغيان هو مجاوزة الحد، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} جاوز حده، وقوله -تبارك وتعالى- عن قول موسى -عليه الصلاة والسلام- مع هارون: {إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىَ} قال: "**يعنيان أن يبدر إليهما بعقوبة، أو يعتدي عليهما فيعاقبهما وهما لا يستحقان**"، وقوله: {إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا} يفرط علينا فسره ابن كثير -رحمه الله- بهذا، وبعضهم فسر يفرط بمعنى يعجّل علينا بالعقوبة، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله-، {يَفْرُطَ} يعني: أن يعجل علينا بعقوبة، وهناك قراءة غير متواترة لابن عباس ومجاهد وعكرمة: {يُفْرِطَ} يعني يشتطّ، {يُفْرِطَ عَلَيْنَا} بمعنى: يشتط في العقوبة.

{قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}، أي: لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي.

وقوله: {قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ}، أي: بدلالة ومعجزة من ربك.

قوله: **{جِئْنَاكَ بِآيَةٍ}** ليس المقصود آية واحدة، وإنما المقصود بالآية: الجنس، فيشمل الآيات التي جاء بها موسى -عليه الصلاة والسلام-، ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: **{وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا}**[سورة طه:٥٦]، فجاء بصيغة الجمع، وهنا جاء بصيغة المفرد، فالآية جنس يشمل الواحد والعدد.

والآية يقول: "**أي بدلالة ومعجزة من ربك**"، هذا تفسير للآية، والآية تأتي في كلام العرب بمعنى العلامة، فما يعطيه الله -عز وجل- لأنبيائه -عليهم الصلاة والسلام- يدل على صدق ما جاءوا به، فهو علامة بهذا الاعتبار، ولهذا يقولون له: دلائل النبوة؛ لأنه يدل على نبوتهم، والسلف يسمون ما يقع ويجري على أيدي الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بنوعيه من الأمور التي فيها الإعجاز، والأمور التي لا إعجاز فيها كل ذلك يسمونه بالآيات، وهو الوارد في نصوص الكتاب والسنة، ويقال لها أيضاً: دلائل النبوة، وبعض ذلك يكون من قبيل المعجز مثل العصا، وبعض ذلك ليس من قبيل المعجز وذلك بما يعرف به صدقه من سيرته، فمثلاً النبي -صلى الله عليه وسلم- يقال له: الصادق الأمين، والآيات التي تكون على أيديهم من الأمور المعجزة تارة يراد بها التحدي، وتارة لا يراد بها التحدي، والأشاعرة والمتكلمون يُعرفون المعجزة: بأنها أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، وهذا ليس بصحيح، وإنما ذكروا هذا القيد: يراد به التحدي؛ لأنهم لم يفرقوا بين السحر والمعجزات إلا بهذا القيد فقط، وهذا غلط، فإن ما يجري على أيدي السحرة من الخوارق هي لا تخرق عادة الناس جميعاً، وإنما تخرق عادة غير السحرة، وأما السحرة فهي بالنسبة إليهم أمر معلوم ومقدور، والله أعلم.

{وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى}، أي: والسلام عليك إن اتبعت الهدى، ولهذا لما كتب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى هرقل عظيم الروم كتاباً كان أوله: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين".

السلام هنا ليس المقصود به التحية، والدليل على هذا أنه لم يأت في أول الكلام، والتحية إنما تقال في أول اللقاء، فهنا خاطبه ثم قال له في ثنايا هذا الخطاب: **{وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى}**، مما يدل على أن المراد -والله تعالى أعلم- السلام بمعنى السلامة، وهذا الذي عليه المحققون من المفسرين كابن جرير، واختاره ابن القيم، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحم الله الجميع.

ولهذا قال موسى وهارون -عليهما السلام- لفرعون: {وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى}، أي: قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته كما قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} [سورة النازعات:٣٧-٣٩]، **وقال تعالى: {فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى * لا يَصْلاهَا إِلَّا الْأَشْقَى *

الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [سورة الليل:١٤-١٦]، **وقال تعالى:** {فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى} [سورة القيامة:٣١-٣٢]، **أي: كذب بقلبه، وتولى بفعله.**

وهذا من اللطف في هذا الخطاب، يقول له: {وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى}، بعد أن قال: {جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ}، ويقول الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "أما قول موسى: {وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى}، فليس بسلام تحية، فإنه لم يبتدئ به فرعون بل هو خبر محض، فإن من اتبع الهدى له السلام المطلق دون من خالفه، فإنه قال له: {فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى}، أفلا ترى أن هذا ليس بتحية في ابتداء الكلام ولا خاتمته؟ وإنما وقع متوسطاً بين الكلامين إخباراً محضاً عن وقوع السلامة وحلولها على من اتبع الهدى، ففيه استدعاء لفرعون وترغيب له بما جبلت النفوس على حبه وإيثاره، وأنه إن اتبع الهدى الذي جاءه به فهو من أهل السلام والله أعلم، وتأمل حسن سياق هذه الجمل وترتيب هذا الخطاب ولطف هذا القول اللين الذي سلب القلوبَ حسنُه وحلاوته مع جلالته وعظمته، كيف ابتدأ الخطاب بقوله: {إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ} وفي ضمن ذلك إنا لم نأتك لننازعك ملكك، ولا لنشُاركك فيه بل نحن عبدان مأموران مرسلان من ربك إليك، وفي إضافة اسم الرب إليه هنا دون إضافته إليهم استدعاء لسمعه وطاعته، كما يقول الرسول للرجل من عند مولاه: أنا رسول مولاك إليك، وأستاذك، وإن كان أستاذهما معاً، ولكن ينبهه بإضافته إليه على السمع والطاعة له، ثم إنهما طلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل ويخلي بينهم وبينهما ولا يعذبهم، ومن طلب من غيره ترك العدوان والظلم وتعذيب من لا يستحق العذاب فلم يطلب منه شططا ولم يرهقه من أمره عسراً، بل طلب منه غاية النصف، ثم أخبره بعد الطلب بثلاثة إخبارات، أحدها قوله تعالى: {قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ} فقد برئنا من عهدة نسبتك لنا إلى التقول والافتراء بما جئناك به من البرهان والدلالة الواضحة، فقد قامت الحجة، ثم بعد ذلك للمرسل إليه حالتان: إما أن يسمع ويطيع فيكون من أهل الهدى، {وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى}، وإما أن يكذب ويتولى فالعذاب على من كذب وتولى، فجمعت الآية طلب الإنصاف وإقامة الحجة وبيان ما يستحقه السامع المطيع، وما يستحقه المكذب المتولي بألطف خطاب وأليق قول وأبلغ ترهيب وترغيب"[٢].

{قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى} [سورة طه:٤٩-٥٢]، **يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق إله كل شيء وربه ومليكه، قال:** {فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى}، **أي: الذي بعثك وأرسلك من هو؟! فإني لا أعرفه وما علمت لكم من إله غيري،** {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}، **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يقول خلق لكل شيء زوجه، وقال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: جعل الإنسان إنساناً، والحمار حماراً، والشاة شاة، وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد: أعطى كل شيء صورته، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: سوّى خلق كل دابة، وقال سعيد بن جبير في قوله:** {أَعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} **قال: أعطى كل ذي**

---

٢ - بدائع الفوائد، لابن القيم (٣٩٦/٢).

خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب من خلق الشاة، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح، وهيأ كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في الخلق والرزق والنكاح، وقال بعض المفسرين: أعطى كل شيء خلقه ثم هدى كقوله تعالى: {وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}، أي: قدر قدراً وهدى الخلائق إليه، أي: كتب الأعمال والآجال والأرزاق ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحيدون عنه ولا يقدر أحد على الخروج منه.

يقول: ربنا الذي خلق الخلق، وقدر القدر، وجبل الخليقة على ما أراد.

قوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِيَ أَعْطَى كُلّ شَيءٍ خَلْقَهُ} نقل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قوله: "**خلق لكل شيء زوجاً**"، بمعنى: لكل ذكر ما يوافقه من الإناث، هذا الذي قصده ابن عباس -رضي الله عنهما- وبه قال بعض المفسرين، واختاره الفراء، وابن جرير -رحمه الله- يقول: إنه أعطى نظير خلقه في الصورة والهيئة، فالذكور من بني آدم أعطاهم نظير خلقهم من الإناث مثلاً وهي الزوجات، وهكذا أيضاً سائر أنواع الحيوان جعل لها نظير خلقها من الزوجات، والأقوال التي هنا وردت عن ابن عباس: "**جعل الإنسان إنساناً، والحمار حماراً، والشاة شاة**"، {أَعْطَى كُلّ شَيءٍ خَلْقَهُ}، يعني: أن الله خلق هذا الخلق متفاوتاً، وأعطى كل خلق ما يليق به، فنوّع هذه المخلوقات، ولهذا يقول مجاهد: "**أعطى كل شيء صورته**"، وقوله: "**سوّى خلق كل دابة**"، وهكذا قول من قال: "**أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة ولا الدابة ... إلى آخره**"، هذه الأقوال كلها -والله تعالى أعلم- تدخل في معنى الآية، {أَعْطَى كُلّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمّ هَدَى} الخلق يعني: أن الله ركبه وصوره وجعله في حال يصلح لمثله مما أراد الله -تبارك وتعالى- له، وهذا يشمل الصور والهيئات في الظاهر، كما أنه يشمل تنويع هذا الخلق، فإذا نظرت إلى المخلوقات تجد أن الله فاوت بينها غاية التفاوت، فأعطى الله -تبارك وتعالى- الدواب في البحر هيئة غير هيئة الدواب التي في البر، وفاوت بين هذه الدواب التي تكون في البحر، كما فاوت بين الدواب التي تكون في البر، فخلْق هذه الأسماك يختلف عن خلْق الجمل والفيل، كما أن خلق الزرافة يختلف عن خلق الشاة، وهكذا في الزواحف نوّعها وجعل خلقها في الجملة مغايراً لخلق ما يمشي أو يدب على أربع، وجعل من هذه المخلوقات ما يمشي على رجلين، ومنه ما يطير في الهواء، فنوّع هذه الصور والأشكال، وجعل الإنسان في أحسن تقويم، فالآية تشمل -والله تعالى أعلم- هذا كله، حتى في الأجزاء والأبعاض فاليد جعلها بهذه الصورة تصلح للقبض والبسط والأخذ ونحو ذلك، ركبها بهذا التركيب: الكف، والأصابع، وجعل فيها هذه المفاصل؛ لتسهل فيها الحركة، ويحصل المقصود والانتفاع منها، وجعل فيها هذه الأنامل اللطيفة بأطرافها وشدها بالأظفار، ويستطيع صاحبها أن يعقد بها ويربط، ويستطيع أن يتصرف سائر التصرفات، وجعل الرِّجل بهيئة أخرى لا تصلح للربط، والأخذ، والعطاء، وإنما تصلح للمشي فركبها تركيباً خاصاً، كما ركب الله -تبارك وتعالى- سائر بدن الإنسان، وجعل العين غير صورة الأذن، فالأذن للسماع جعل فيها هذه التجاويف، والعين للنظر جعلها بهذه الصورة البديعة، وقل مثل ذلك في سائر الأشياء، فالآية تشمل هذا كله، -والله تعالى أعلم-، وهذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ} خلْقه اللائق به، {أَعْطَى كُلّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمّ هَدَى}، يعني: هداه لما يصلحه، هذه المخلوقات هداها لما تقوم به

معايشها، ويحصل بقاؤها ودوامها، فالسباع تخرج لها أنياب، وتقبل على لون من المطعوم يختلف عما يقبل عليه غيرها، فالطائر جعل الله له منقاراً فهو يلتقط به، ويأكل الحب ونحو ذلك، والشاة جعل الله -عز وجل- لها خلقاً آخر تقبل على لون من الطعام من غير تعليم، خِلقة، والصغير يخرج من بطن أمه ويلتقم الثدي من غير أن يُعلم ويُدرب على ذلك، ومن تأمل ونظر في هذه المخلوقات وجد العجب العجاب، كيف هذه المخلوقات تعرف هذه الأمور وتهتدي إليها؟!، وكيف النحل يبني هذه الخلايا، بهذه الطريقة العجيبة؟!، ولو أُخذ صغار النحل ووضع في مكان معزول فإنه يبني خليته بنفس الطريقة التي يبني بها النحل خلاياه في أي مكان على وجه الأرض، فالله -تبارك وتعالى- علمها هذا، وهداها إليه، فسبحانه من خالق حكيم.

قال العلامة الشنقيطي -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: **{قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}**: "فيه للعلماء أوجه لا يكذب بعضها بعضاً، وكلها حق، ولا مانع من شمول الآية لجميعها، منها: أن معنى **{أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}** أنه أعطى كل شيء نظير خلقه في الصورة والهيئة، كالذكور من بني آدم أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجاً، وكالذكور من البهائم أعطاها نظير خلقها في صورتها وهيئتها من الإناث أزواجاً، فلم يعط الإنسان خلاف خلقه فيزوجه بالإناث من البهائم، ولا البهائم بالإناث من الإنس، ثم هدى الجميع لطريق المنكح الذي منه النسل والنماء، كيف يأتيه، وهدى الجميع لسائر منافعهم من المطاعم والمشارب وغير ذلك.

وهذا القول مروي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- من طريق علي بن أبي طلحة، وعن السدي وسعيد بن جبير، وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه- أيضاً: **{ثُمَّ هَدَى}**، أي: هداه إلى الألفة والاجتماع والمناكحة.

وقال بعض أهل العلم: **{أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}**، أي: أعطى كل شيء صلاحه ثم هداه إلى ما يصلحه، وهذا مروي عن الحسن وقتادة.

وقال بعض أهل العلم: **{أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}**، أي: أعطى كل شيء صورته المناسبة له. فلم يجعل الإنسان في صورة البهيمة، ولا البهيمة في صورة الإنسان، ولكنه خلق كل شيء على الشكل المناسب له، فقدره تقديراً، كما قال الشاعر:

وله في كل شيء خِلقة *** وكذاك الله ما شاء فعل.

يعني بالخلقة: الصورة، وهذا القول مروي عن مجاهد ومقاتل وعطية وسعيد بن جبير، **{ثُمَّ هَدَى}** كلَّ صنف إلى رزقه وإلى زوجه.

وقال بعض أهل العلم: **{أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ}**، أي: أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يطابق المنفعة المنوطة به، كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع، وكذلك الأنف والرِّجل واللسان وغيرها، كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير نابٍ عنه، وهذا القول روي عن

الضحاك، وعلى جميع هذه الأقوال المذكورة فقوله تعالى: {كُلَّ شَيْءٍ} هو المفعول الأول لـــ {أَعْطَى}، و{خَلْقَهُ} هو المفعول الثاني"[٣].

الإمام ابن القيم -رحمه الله- يرد بقوة على من يقول بأن المقصود بـــ: {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ} أي: أعطى الذكور ما يناسبها من الإناث، ويوافق خلقها، ويقتصر على هذا المعنى، فيقول -رحمه الله تعالى-: "قال مجاهد: {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ} لم يعط الإنسان خلق البهائم ولا البهائم خلق الإنسان، وأقوال أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى، قال عطية ومقاتل: أعطى كل شيء صورته، وقال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه، والمعنى: أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خُلق له، ثم هداه لما خلق له وهداه لما يصلحه في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه وتصرفه، هذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين، فيكون نظير قوله: {قَدَّرَ فَهَدَى} [سورة الأعلى:٣] وقال الكلبي والسدي: أعطى الرجل المرأة، والبعير الناقة، والذكر الأنثى من جنسه، ولفظ السدي أعطى الذكر الأنثى: مثل خلقه ثم هدى إلى الجماع، وهذا القول اختيار ابن قتيبة والفراء، قال الفراء: أعطى الذكر من الناس امرأة مثله، والشاة شاة والثور بقرة ثم ألهم الذكر كيف يأتيها، قال أبو إسحاق: وهذا التفسير جائز؛ لأنا نرى الذكر من الحيوان يأتي الأنثى ولم ير ذكراً قد أتى أنثى قبله، فألهمه الله ذلك وهداه إليه، قال: والقول الأول ينتظم هذا المعنى؛ لأنه إذا هداه لمصلحته فهذا داخل في المصلحة، قلت: أرباب هذا القول هضموا الآية معناها؛ فإن معناها أجل وأعظم مما ذكروه، وقوله: {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ} يأبى هذا التفسير؛ فإنّ حمْل كل شيء على ذكور الحيوان وإناثه خاصة ممتنع لا وجه له، وكيف يخرج من هذا اللفظ الملائكة والجن ممن لم يتزوج من بني آدم، ومن لم يساقد من الحيوان، وكيف يسمى الحيوان الذي يأتيه الذكر خلقاً له؟ وأين نظير هذا في القرآن؟ وهو سبحانه لما أراد التعبير عن هذا المعنى الذي ذكروه، ذكره بأدل عبارة عليه وأوضحها فقال: {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى} [سورة النجم:٤٥]، فحمْلُ قوله: {أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ} على هذا المعنى غير صحيح فتأمله، وفي الآية قول آخر قاله الضحاك قال: أعطى كل شيء خلقه: أعطى اليد البطش، والرِّجل المشي، واللسان النطق، والعين البصر، والأذن السمع، ومعنى هذا القول أعطى كل عضو من الأعضاء ما خلق له، والخلق على هذا بمعنى المفعول، أي: أعطى كل عضو مخلوقه الذي خلقه له، فإن هذه المعاني كلها مخلوقة لله أودعها الأعضاء وهذا المعنى وإن كان صحيحاً في نفسه لكن معنى الآية أعم، والقول هو الأول وأنه سبحانه أعطى كل شيء خلقه المختص به، ثم هداه لما خلق له، ولا خالق سواه سبحانه ولا هادي غيره، فهذا الخلق وهذه الهداية من آيات الربوبية ووحدانيته، فهذا وجه الاستدلال على عدو الله فرعون"[٤].

{قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى} أصح الأقوال في معنى ذلك أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق، وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أي: الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره، فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله وهو اللوح المحفوظ، وكتاب الأعمال.

---

٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (١٩/٤).

٤ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، للإمام ابن القيم الجوزيه (٧٨-٧٩).

قوله: {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى} ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو الذي عليه عامة المفسرين -أنه من المعنى- {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى} لم يتعرفوا على هذا المعبود، ويتقربوا إليه ويفردوه بالعبادة؟، يدعوه إلى التوحيد والإيمان ويحتج عليه فرعون بالقرون التي وقع منها الإشراك، وترك عبادة الله -عز وجل-، هذا هو المعنى الذي تدل عليه الآية -والله تعالى أعلم-، وهو الذي اختاره ابن جرير ورجحه ابن القيم، وبعضهم يقول: إنه أراد المغالطة لما خشي أن ينقطع ويظهر عجزه جعل يشغب بهذا فيسأل موسى {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى}، يعني: أخبرنا عما جرى لهم، ووقع لهم من الحوادث ونحو ذلك؟، وإنما ما بال القرون الأولى لم يعبدوه؟، والله تعالى أعلم.

وقال ابن القيم -رحمه الله-: "ولهذا لما علم فرعون أن هذه حجة قاطعة لا مطعن فيها بوجه من الوجوه عدل إلى سؤال فاسد عن وارد فقال: {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى}، أي: فمال القرون الأولى لم تقر بهذا الرب ولم تعبده بل عبدت الأوثان؟، والمعنى لو كان ما تقوله حقاً لم يخفَ على القرون الأولى ولم يهملوه، فاحتج عليه بما يشاهده هو وغيره من آثار ربوبية رب العالمين، فعارضه عدو الله بكفر الكافرين به، وشرك المشركين، وهذا شأن كل مبطل؛ ولهذا صار هذا ميزاناً في ورثته يعارضون نصوص الأنبياء بأقوال الزنادقة، والملاحدة وأفراخ الفلاسفة، والصابئة والسحرة ومبتدعة الأمة وأهل الضلال منهم، فأجابه موسى عن معارضته بأحسن جواب فقال: {عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي} [سورة طه:٥٢]، أي: أعمال تلك القرون وكفرهم، وشركهم معلوم لربي قد أحصاه وحفظه وأودعه في كتاب فيجازيهم عليه يوم القيامة، ولم يودعه في كتاب خشية النسيان والضلال فإنه سبحانه لا يضل ولا ينسى، وعلى هذا فالكتاب هاهنا كتاب الأعمال، وقال الكلبي: يعني به اللوح المحفوظ، وعلى هذا فهو كتاب القدر السابق، والمعنى على هذا أنه سبحانه قد علم أعمالهم وكتبها عنده قبل أن يعملوها، فيكون هذا من تمام قوله: {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} فتأمله"[٥].

{لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى}، أي: لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً، يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان: أحدهما عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك.

قوله -تبارك وتعالى-: {لاَّ يَضِلُّ رَبِّي} لا يضل: أقوال المفسرين ترجع -والله تعالى أعلم- إلى معنى هذه اللفظة، فإن كلمة ضل بمعنى ذهب وتلاشى وغاب واضمحل ونحو ذلك، {وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ} [سورة السجدة:١٠] بمعنى: غابوا وتفرقت أبعاضهم وأجزاؤهم فيها، تحللوا فيها، وهكذا الذهاب عن حقيقة الشيء يقال له ضلال، كما قال إخوة يوسف لأبيهم يعقوب -عليه الصلاة والسلام-: {إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ} [سورة يوسف:٩٥]، يعني: الذهاب عن الحق في حقيقة ما جرى ليوسف -عليه الصلاة والسلام-، ولم يقصدوا بهذا أنه ضل بضلاله يعني: الكفر، وإلا لكانوا كفاراً بذلك؛ لأنه نبي -عليه الصلاة والسلام-، وهكذا أيضاً حينما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} [سورة الضحى:٧] فسر بأنه ذاهب عن حقيقة النبوة، والوحي، فهداه الله -عز وجل- لذلك، فهنا: {لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى}، يعني: لا يقع منه الخطأ بمعنى الذهاب

---

٥ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم (٧٩).

عن حقيقة الشيء، ولا يغيب عنه شيء من الأشياء كما هو الحاصل بالنسبة للآدميين، والنسيان هو الذهول عن المعلوم، والفرق بين النسيان وبين السهو أن السهو يكون المعلوم مكتناً في الذهن يحتاج فقط إلى تنبيه، سها عن كذا، بخلاف نسي،

ذهاب ما علم قُل نسيان *** والعلم في السهو له اكتنانُ

فإذا حفظ الإنسان آية ثم نسيها، يقال لهذا: نسيان، وإذا حصل له ذهول عارض عنها يقال: سها عنها، فهي في ذهنه معلومة فلو نُبه لتنبه، فالله -تبارك وتعالى- لا يرد عليه الخطأ، ولا يذهب عنه شيء من الأمور ولا يفوته شيء من الأشياء، ولا ينسى، وعلم الله -تبارك وتعالى- لا يحصل له ما يحصل لعلم البشر من الأمور العارضة حيث إن هذا المعلوم بالنسبة للبشر يحصل له شيء من التغيب عن الذهن، فيعجز الإنسان عن استحضاره واسترجاعه، لكن علمه تعالى محيط لا يخفى عليه خافية، ولا تعرض له العوارض التي يحصل فيها الضعف والخطأ والعجز، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه رقم: (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- **في تفسير قوله تعالى:** {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى * وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى} [سورة طه: (٥٣-٥٦)] **هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه -عز وجل- حين سأله فرعون عنه، فقال:** {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}[سورة طه: (٥٠)] **ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال:** {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا} **وفي قراءة بعضهم:** {مِهَاداً}**، أي: قراراً تستقرون عليها، وتقومون وتنامون عليها، وتسافرون على ظهرها،** {وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً}**، أي: جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها كما قال تعالى:** {وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} [سورة الأنبياء: (٣١)] {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى}**، أي: من أنواع النباتات من زروع وثمار، ومن حامض وحلو ومر وسائر الأنواع،** {كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ}**، أي: شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضراً ويبساً،** {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ}**، أي: لدلالات وحججاً وبراهين** {لِأُولِي النُّهَى}**، أي: لذوي العقول السليمة المستقيمة على أنه لا إله إلا الله ولا رب سواه،** {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}**، أي: من الأرض مبدؤكم، فإنّ أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض** {وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ}**، أي: وإليها تصيرون إذا متم وبليتم،** {وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً} [سورة الإسراء: (٥٢)] **وهذه الآية كقوله تعالى:** {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} [سورة الأعراف: (٢٥)].

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى} يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه -عز وجل- حين سأله فرعون عنه فقال:** {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} **ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال:** {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ} فيما سبق لما سأل فرعونُ موسى -عليه الصلاة والسلام- فقال: {فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى} [سورة طه: (٤٩)] قال: {رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}، بحسب كلام المؤلف: جاء كلام معترض وهو قوله: {قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى} [سورة طه: (٥١-٥٢)] ثم قال: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا}، وهذا القول: وهو إن هذا من تمام كلام موسى -عليه الصلاة والسلام- يرد عليه إشكال وهو أنه قال: {فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى}، إذا كان هذا من كلام موسى -عليه الصلاة والسلام- فموسى يقول: إن هذا الرب الذي ندعوك

إلى عبادته هو {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}، فكان الأصل أن يقول: فأخرج به أزواجاً من نباتٍ شتى، لكنه قال: {فأخرجنا} فكيف جاء بضمير المتكلم: {أخرجنا}؟ فالذين يقولون بأن هذا من تمام كلام موسى -عليه الصلاة والسلام- يقولون: هذا التفات من الغائب إلى المتكلم، -ولا إشكال أنه التفات-، بل هو حتى على القول الآخر التفات، ومعنى الالتفات: هو التحول في الكلام من الغائب إلى المخاطب أو العكس أو الغائب إلى المتكلم ونحو ذلك كما هنا، ونحو: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [سورة الفاتحة: (٢-٤)] هذا كله بالغائب، {إِيَّاكَ} هذا للمخاطب، وهذا الالتفات له حِكَم: تنشيط السامع، تجديد في الكلام، وهناك معانٍ أخرى يذكرونها في كل موضع بحسبه، مثلاً في سورة الفاتحة يقول: لما ذكر أوصافه فكأنه حضر بين يديه فخاطبه، والشاهد أن الذين يقولون بأن هذا من كلام موسى -عليه الصلاة والسلام- يقولون: حصل هذا الالتفات إلى ضمير المتكلم، للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة، ولكن هذا الجواب لا يخرج من الإشكال، فإنه إذا كان موسى -عليه الصلاة والسلام- يحكي ذلك عن الله -عز وجل- ويذكر صفته فكيف يقول: {فَأَخْرَجْنَا}؟ وإنما يكون ذلك من كلام الله -تبارك وتعالى-، ولهذا قال جماعة من أهل العلم بأن هذا من كلام الله، وليس من كلام موسى -عليه الصلاة والسلام-، وهذا القول هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، واختاره من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وعلى هذا يكون هذا الكلام من قبيل الموصول لفظاً المفصول معنى، فآخر الكلام كان كلام موسى -عليه الصلاة والسلام- {قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا} وفي القراءة الأخرى: {مِهَادًا} والمهاد: هو ما يوطَّأ للصبي من فراش ونحوه، يقول: {وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا}، أي: جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها، وأصل السلك: إدخال الشيء في الشيء، والمراد هنا -والله تعالى أعلم- أنه أدخل في الأرض لأجلكم طرقاً ومسالك تسلكونها، يقول: كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} [سورة الأنبياء: (٣١)]، يقول: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى}، **أي: لذوي العقول السليمة المستقيمة**، والنُّهى: هي العقول الكاملة أو العقول الراجحة، جمع نُهية قيل: سميت بهذا؛ لأنها تنهى صاحبها عما لا يليق، أو لأن أصحابها -وهم أولو النهى- ينهون الناس عما لا يليق ويأمرونهم بما يجمل ويحسن، أو لأنه يُنْتهى إلى رأيهم، يقول: {وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}، يقول: **وهذه الآية كقوله تعالى**: {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}.

وقوله: {وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى} [سورة طه: (٥٦)]، **يعني: فرعون أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعاين ذلك وأبصره، فكذب بها وأباها كفراً وعناداً وبغياً، كما قال تعالى**: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [سورة النمل: (١٤)] **الآية**.

المراد بهذه الآيات المشار إليها هنا {وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا} هي الآيات التسع كما يبينه قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [سورة الإسراء: (١٠١)] فهذه هي الآيات التي جاء بها موسى -عليه الصلاة والسلام- على اختلاف في المراد بهذه الآيات وتعيينها، وقد سبق الكلام على هذا في سورة الإسراء.

{قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}[سورة طه: (٥٧-٥٩)]، **يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه، فصارت ثعباناً عظيماً، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء، فقال: هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس فيتبعونك، وتكاثرنا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه، {فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً}، أي: يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين، ووقت معين، فعند ذلك {قَالَ} لهم موسى: {مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ} وهو يوم عيدهم ونوروزهم وتفرغهم من أعمالهم، واجتماع جميعهم؛ ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: {وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ}، أي: جميعهم {ضُحًى}، أي: ضحوة من النهار؛ ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء كل أمرهم بيِّن واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج، ولهذا لم يقل: ليلاً، ولكن نهاراً ضحى، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: وكان يوم الزينة يوم عاشوراء، وقال السدي وقتادة وابن زيد: كان يوم عيدهم، وقال سعيد بن جبير: كان يوم سوقهم، ولا منافاة، قلت: وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده، كما ثبت في الصحيح، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: {مَكَانًا سُوًى} مستوٍ بين الناس، وما فيه لا يكون صَوَب ولا شيء يتغيب بعض ذلك عن بعض، مستوٍ حين يُرى.**

قوله -تبارك وتعالى-: {فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى}، يقول: **أي يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان ووقت معين، فعند ذلك قال لهم موسى -عليه الصلاة والسلام-**: {مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}، فرعون يقول: {اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى} الأقرب -والله أعلم- في تفسيره أنه مكان مستوٍ، يعني: في أبعاده وموقعه بحيث يكون مكاناً متوسطاً يسهل مجيء الناس إليه من الأطراف والنواحي المختلفة، ولا يكون مكاناً متطرفاً في محل ناءٍ لا يصل إليه إلا بعض الناس أو يصل الناس إليه بمشقة أو نحو ذلك، هكذا فسره بعض أهل العلم، وبعضهم قال: سوى، أي: مكاناً متوسطاً بيننا وبينك، أي: بين موسى -عليه الصلاة والسلام- وبين فرعون، لكن هذا قد لا يكون بالقوي، والسبب أن موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما أراد أن يُبيّن هذا هل المقصود أن يكون مكاناً متوسطاً بين قصر فرعون وبين المكان الذي يسكن فيه موسى -عليه الصلاة والسلام- من البلدة نفسها، وهل هذا هو المراد؟ هذا فيه بعد، وأحسن من هذا قول من قال: إنه مكان مستوٍ، بمعنى أنه لا يوجد فيه من التضاريس ما يحول دون الرؤية والمشاهدة حيث يكون مكاناً مستوياً تماماً، وكذلك يكون الموعد في وقتٍ الناسُ فيه قد تفرغوا من أشغالهم، {مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ} بعضهم يقول: يوم الزينة أي: يوم السوق الذي يخرجون فيه إلى سوقهم، وبعضهم يقول: يوم الزينة هو يوم العيد، وقول ابن كثير -رحمه الله-: "**ولا منافاة**" كأنه أراد: أنهم لعلهم يخرجون إلى سوقهم في يوم عيدهم، والمشهور أنه يوم عيد بالنسبة لهم، فيجتمع هؤلاء الناس ويتيسر حضورهم وقد تخففوا من أشغالهم وتفرغوا من أعمالهم، فيمكنهم الحضور والمجيء بل يُحْضَرون كما قال: {وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}، ومعنى: {أَن يُحْشَرَ النَّاسُ}

يجمعون، والضحى هو أول النهار فإن الشمس إذا ارتفعت بعد الطلوع كان ذلك هو الضحى، وهذا الضحى له أول وأوسط وآخر، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا ظاهر، وهو أن هذا الوقت هو أوضح ما يكون في الرؤية بحيث لا يكون هناك خفاء ولا لبس، فلا أحد يقول: رأيت أو ما رأيت، وذكر بعض أهل العلم أيضاً علة أخرى وهي غير منافية لما ذكر: أن هذا الوقت في أول النهار فقد تطول تلك الجولة مما يستدعي وقتاً أطول فيكون المبتدأ من أول اليوم.

{فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى} [سورة طه: (٦٠-٦٤)] **يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه لما تواعد هو وموسى -عليه السلام- إلى وقت ومكان معلومين تولى، أي: شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى السحر في ذلك الزمان، وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً، كما قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ}** [سورة يونس: (٧٩)] **{ثُمَّ أَتَى}: أي اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة، وأقبل موسى -عليه الصلاة والسلام- متوكئاً على عصاه ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفاً، وهو يحرضهم ويحثهم ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، يقولون {أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}** [سورة الشعراء: (٤١-٤٢)] **{قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً}، أي: لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على الله {فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ}، أي: يهلككم بعقوبة هلاكاً لا بقية له {وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ} قيل: معناه أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر إنما هذا كلام نبي، وقائل يقول: بل هو ساحر، وقيل غير ذلك، والله أعلم.**

نعم، قوله -تبارك وتعالى-: {فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى}، فتولى هذا كقوله: {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى} [سورة النازعات: (٢٢)]، قال: {فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى} هذا الكيد هو ما يعارض به هذه المعجزة وهذه الآية، وإنما عارضها بأفعال السحرة، ولهذا قال الله -عز وجل-: {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ} [سورة طه: (٦٩)]، فهو جمع كيده الذي هو السحر، كما فسره قوله: {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ}، {ثُمَّ أَتَى} {قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ} وفي القراءة الأخرى بفتح الياء، وهي لغة أهل الحجاز، وأما هذه فيقولون: إنها لغة تميم، {فَيُسْحِتَكُمْ}، يعني الاستئصال والإهلاك، {بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى} هذه الكلمة صدرت من موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما رأى هؤلاء قد جدوا واجتهدوا وشمروا عن ساعد الجد، وجمعوا ما استطاعوا جمعه من السحرة، وجاء هؤلاء السحرة بما معهم من حبال وعصي، وتضافرت جهودهم وتكالبت من أجل إبطال هذه الآية والمعجزة، ومعارضة ما جاء به نبي الله -عليه الصلاة والسلام- {قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ} فهذه الكلمة وصلت إلى الأعماق، وأثرت فيهم غاية التأثير فتنازعوا عند ذلك، والفاء تدل على التعليل كما أنها تدل على التعقيب المباشر، فلما قال هذه الكلمة كانت سبباً للتنازع،

وهذا يفيد في بيان المراد بهذا التنازع؛ لأن من المفسرين من يقول: إن التنازع بينهم هو ما حصل من الكلام فيما بينهم في العائدة التي تعود عليهم، والأجر الذي يحصلون عليه والجائزة، لكن هذا بعيد، فتنازعوا بعدما سمعوا هذه الكلمة من موسى -عليه الصلاة والسلام- {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى} بعضهم يقول: إن التنازع الذي حصل بينهم هو الكلام الذي جرى من أنه إن كان نبياً اتبعناه، وإن كان ساحراً غلبناه، وهذا ليس بتنازع، التنازع فيه تدافع وتجاذب فحصل بسبب هذه الكلمة التي قالها موسى -عليه الصلاة والسلام- شيء من الانشقاق في داخلهم، في داخل هذا الصف؛ لأنهم أرادوا أن يتشجعوا كما قال الله -تبارك وتعالى- إنهم حث بعضهم بعضاً أن يأتوا: {فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا} فأرادوا أن يظهروا بمظهر المتماسك القوي، وهم في الواقع حصل بينهم تفكك واختلاف وتنازع، والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن بعضهم كأنه أراد أن يتراجع أو خاف وهاب من هذه المواجهة والمعارضة لِمَا جاء به موسى -عليه الصلاة والسلام-، وأما الإسرائيليات فلا يعَوَّل على شيء منها، والمفسرون يذكرون أشياء من هذا، فبعضهم يقول: إنهم طلبوا من فرعون أن يريهم موسى -صلى الله عليه وسلم- وهو نائم، فلما نظروا إليه وجدوا أن العصا تحرسه، فعرفوا أن هذا ليس من السحرة، هكذا قالوا، ولا حاجة لشيء من هذا، هذه الكلمة التي صدرت من موسى -صلى الله عليه وسلم- لا تصدر من السحرة، الساحر ما يقف ويعظ الناس عند المواجهة والتحدي ويقول لهم: {وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ}، وهو سينكشف بعد قليل، فهذا ليس من السحرة، السحرة لا يفعلون هذا، بل هم من أخبث الناس نفساً، وكلما أوغل الإنسان في هذا بخبث النفس وفساد الطوية، والإمعان في السوء ظاهراً وباطناً كان أمكن في السحر، وهؤلاء الذين جيء بهم ليسوا مجرد سحرة، وإنما هم من عتاة السحرة، ولهذا لما قال الله -عز وجل-: {فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى} هذا الكيد هو الذي أخبر الله -عز وجل- عنه في مواضع أخرى، لما قال له الملأ كما في آية الأعراف: {أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} [سورة الأعراف: (١١١-١١٢)]، وفي الموضع الآخر: {سَحَّارٍ} [سورة الشعراء: (٣٧)] فهو لم يطلب مجرد سحرة، وإنما طلب السحرة العلماء بالسحر، كل ساحر عليم، وأيضاً صيغة {سَحَّارٍ} صيغة مبالغة، سحار على وزن فعّال، أي إنسان متمرس تماماً في السحر، وجيء بهم من أطراف مملكته، ولهذا أرسل في المدائن حاشرين، والحاشر هو الذي يحشر الناس، فيأتون بهم قهراً، ويحملونهم على المجيء وترك ما هم فيه من الأشغال من أجل تحقيق مقصوده ومطلوبه، فهذا أمر، فلما قال لهم هذا الكلام عرفوا أن هذا ليس بساحر {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ}، قال: {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى} النجوى: هو الكلام الذي يكون بين طرفين يقصد به الانفراد والإخفاء عن الآخرين، ولا يكون على سبيل العلانية، قال بعضهم أصله من النجوة، وهي المكان المرتفع، فكأن هذا الكلام ينقل من حال العلانية إلى حال الخفاء، {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى} بمعنى أنهم أرادوا ألا يظهر ذلك النزاع والشقاق أمام خصمهم موسى -عليه الصلاة والسلام-؛ لئلا يتقوّى عليهم بذلك، فهم أمام مواجهة، ويريدون أن يحافظوا على معنوياتهم وألا يستفيد موسى -عليه الصلاة والسلام- شيئاً مما جرى ووقع بينهم، {قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم} بعدما حصل الاختلاف والتنازع أرادوا أن يأتوا بصفة موحدة وصيغة متفق عليها، بعضهم كان يقول: هذا ما يمكن أن يكون ساحراً، وبعضهم قال: لا، لابد أن نخرج بصيغة موحدة، وكلام متفق عليه يردده الجميع، الجواب

يكون واحداً، والوصف يكون متحداً، {إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى}.

وقوله: {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى}، أي: تناجوا فيما بينهم، {قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ} وهذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ {إِنْ هذين لساحران} وهذه اللغة المشهورة، وقد توسع النحاة في الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه، والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه -يعنون موسى وهارون عليهما السلام- ساحران عالمان، خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة، ويقاتلا فرعون وجنوده، فينصرا عليه، ويخرجاكم من أرضكم.

في قوله -تبارك وتعالى-: {قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ} هذا الموضع من كتاب الله -تبارك وتعالى- فيه قراءات متعددة، وبعض هذه القراءات فيه إشكال معروف عند العلماء، وقد أطالوا في الجواب عنه، حتى إن بعضهم قد ألف فيه مؤلفات مستقلة، وهناك عدد من الرسائل المخطوطة في الكلام على هذا الموضع من كتاب الله -تبارك وتعالى-، فقد قرأه ابن كثير وعاصم في رواية حفص وهي قراءة الزهري والخليل بن أحمد الفراهيدي، وهو {إِنْ هذان} باعتبار أن إن نافية، وهذه لا إشكال فيها،

إنْ هو مستولياً على أحد *** إلا على أضعفِ المجانين

إن هو، يعني ما هو، {إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ} [سورة فاطر: (٢٣)] يعني ما أنت إلا نذير، فهذه لا إشكال فيها، وهكذا قراءة ابن كثير من السبعة {إِنْ هذانِّ} بتشديد النون فإنْ هذه نافية أيضاً لا إشكال فيها بنفس معنى القراءة السابقة، وقرأه المدنيون والكوفيون وابن عامر {إِنّ هذان} ومعلوم أن "إنّ" ناصبة، وأن "هذان" يعرب إعراب المثنى، والمشهور أن المثنى يرفع بالألف، وينصب ويجر بالياء، فعلى المشهور وعلى هذه القراءة يقال: {إِنّ هذين لساحران}، فهنا قال: {إِنّ هذان} فهذه هي القراءة التي تكلم عليها أهل العلم، يذكرون أجوبة كثيرة في توجيه ذلك، لماذا قال: إنَّ هذان؟ لمَ لمْ يقل: إنّ هذين؟ ومن أحسن هذه الأجوبة -وهو الذي ذكره سيبويه وجماعة من المحققين كالأخفش والكسائي والفراء-: أن ذلك على لغة بعض العرب، فبعضهم يقول: هذه لغة بني الحارث بن كعب، وبعضهم يقول: خثعم، وبعضهم يقول: كنانة، الشاهد أنها لغة عربية فصيحة لبعض العرب وهو إلزام المثنى الألف في الحالات كلها، رفعاً ونصباً وجراً.

إنّ أباها وأبا أباها *** قد بلغا في المجد غايتاها

وهذا من شواهد النحو المعروفة، "قد بلغا في المجد غايتاها"، ولم يقل: "قد بلغا في المجد غايتيها"، وهكذا أيضاً في قول الشاعر:

تزوّدَ منا بين أذناه ضربةً

كان الأصل أن يقول على اللغة المشهورة: بين أذنيه، ولكن قال: بين أذناه، فهذه القراءة تخرج بهذا التخريج، وبعضهم يقول: إن "إنّ" هنا بمعنى "نعم"، {إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ}: نعم هذان لساحران، وهذا قال به أئمة من أهل اللغة كالزجاج والأخفش، قالوا بذلك، وهذا أيضاً معروف في كلام العرب ويوجد له من الشواهد في كلامهم ما يدل على ثبوته وصحته، لكن من أسهل الأجوبة هو ما ذكرته أولاً، وتوجد أجوبة أخرى، على كل

حال لا حاجة للإطالة في هذا، يقول: {قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ} **وهذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ** {إنّ هذين} وهذه القراءة على الوجه الإعرابي المشهور، ولا إشكال فيها من الناحية الإعرابية، ولكنها مخالفة لخط المصحف، وبها قرأ أبوعمرو، وهي منقولة عن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- وعائشة والحسن وسعيد بن جبير.

وقوله: {وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى}، **أي: ويستبدا بهذه الطريقة وهي السحر، فإنهم كانوا معظَّمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك، وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم، وقال عبد الرحمن بن زيد: بطريقتكم المثلى: بالذي أنتم عليه.**

{بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى} يقول: **يستبدا بهذه الطريقة وهي السحر**، يعني أن هذا من كلام السحرة، خافوا أن يتغلب عليهم موسى -عليه الصلاة والسلام- وعندئذ يستأثر بالغنيمة دونهم، ولهذا قال بعضهم كابن جرير -رحمه الله-: {وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى}، أي: يستوليا على سادتكم وأشرافكم، وهذا المعنى إذا تأملته تجد أنه غير مخالف لما سبق، فيستأثرا بطريقتكم المثلى، بمعنى أنهما يستوليان على الأشراف والسادة والكبراء، فيحصل لهما الاستحواذ على المكاسب والعوائد والمغانم، ويمكن أن يفسر هذا بأنهم يرون أنهم على خير حال، على الأقل بحسب زعمهم ودعواهم فإن المبطل لا يقول عن نفسه إنه مبطل، وإنما يقول: أنا على الطريقة الصحيحة والمثلى، وهذا جاء ليغير الدين ويفسد في الأرض، كما قال فرعون: {إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} [سورة غافر: (٢٦)]، فهم -سواء فرعون أو السحرة- كلهم يرون أن الحال التي هم عليها -على الأقل زعماً منهم- هي خير حال، وأن موسى -عليه الصلاة والسلام- يفسد، ويريد أن يخرجهم من أرضهم بهذا السحر.

{فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا}، **أي: اجتمعوا كلكم صفاً واحداً، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة؛ لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه.**

{فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ} يعني: أحكموا كيدكم واعزموا عليه، تقول: أجمع على كذا أي: عزم، وفي قراءة أخرى متواترة -قراءة أبي عمرو- {فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ}، اجمَعوا كيدكم من الجمع الذي هو بمعنى الضم، {فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا}، أي: اجتمعوا، إلى آخره.

{وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى}، **أي: منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.**

{قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} [سورة طه: (٧٠)] **يقول تعالى مخبراً عن السحرة حين توافقوا هم وموسى -عليه السلام-، أنهم قالوا لموسى:** {إِمّا أَن تُلْقِيَ}، **أي: أنت أولاً** {وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا}، **أي: أنتم أولاً لنرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم،** {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيّهُمْ يُخَيّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنّهَا تَسْعَى} **وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا** {وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ} [سورة

الشعراء: (٤٤)]، وقال تعالى: {سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [سورة الأعراف: (١١٦)] وقال هاهنا: {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} وكانوا جماً غفيراً، وجمعاً كثيراً، فألقى كل منهم عصاً وحبلاً حتى صار الوادي ملآن حيات يركب بعضها بعضاً.

قوله: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ} قوله: {بَلْ أَلْقُوا} لا يرد هنا أن يقول قائل: كيف أمرهم بالإلقاء وهذا سحر، فكيف أمرهم بالسحر وهو منكر؟ فهم جاءوا بهذا لإبطال ما عنده، وجاء هو لإظهار المعجزة، فهم لا يقولون له: نلقي أو لا نلقي؟ إنما يقولون: من يبدأ؟، فقال لهم: ابدءوا، وهذا أظهر في المعجزة من جهة أن علوق الأذهان إنما يكون بما يكون آخراً، والأمر الثاني: أنهم إذا جاءوا بهذا فإن كل ما جاءوا به من هذه الأمور والأباطيل هذه الحية ستلتهمه، فقال لهم: {بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} وهذا يدل على أن السحر الذي جاءوا به هو سحر التخييل، ويدل على هذا أيضاً في الآية الأخرى {سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ} فهذا سحر التخييل، فالسحر أنواع، ولا يقال كما تقول المعتزلة بأن السحر إنما هو من هذا القبيل وما شابهه، مثل معرفة خواص المواد، فهذه أنواع من السحر، وإلا فالسحر أنواع منه ما هو سحر حقيقي ليس تخييلا ولا معرفة خواص المواد، وهذا قد يمرض وقد يقتل بإذن الله، وما شابه ذلك وهذا هو السحر الحقيقي، ومنه ما يكون من قبيل سحر التخييل كما وقع هذا {سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ} يصير الناس يخيل إليهم أن هذا الإنسان تخرج من فمه نار، أو أن هذا السيف يدخل في جوفه، ويخرج من الجهة الأخرى، وليس كذلك، لكن يسحر أعين الناس، ومنه نوع يعتمد على خفة اليد، فيظن من لا خبرة له بأن هذا الشيء الذي فعله هذا الإنسان سحرٌ، وهو ليس بسحر، إنما هو يعتمد على خفة اليد والمهارة في بعض الحركات، وهذا لا يجوز، لكنه ليس بكفر مخرج من الملة، -أعني هذا النوع الأخير الذي يعتمد على خفة اليد-، فهي خدع، ولذلك للأسف تجد في بعض محلات الألعاب والعجائب والتسالي ما هو كثير من هذا القبيل، أشياء يتعلمها الطفل ويتحيل بها، ولربما يتعلم الأطفال بعض الحركات، بل ربما بعض الكبار يأتون بذلك فاصلا بين دوراتهم المهارية –للأسف-، ففي دورة في بعض المهارات يأتي المدرب بفاصل فيه حركات تعتمد على خفة اليد، هي من قبيل هذا النوع من السحر الذي يعتمد على خفة اليد، ومثل هذا يختلف فيه العلماء منهم من يرى أنه كفر؛ لعموم ما ورد في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ} [سورة البقرة: (١٠٢)]، وقوله: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ} [سورة البقرة: (١٠٢)]، فأطلق على السحر أنه كفر، والأقرب أن هذا النوع الذي يعتمد على خفة اليد حرام ولا يصل إلى درجة الكفر المخرج من الملة، إنما الكفر المخرج من الملة هو ما كان مثل السحر الذي يكون فيه مخاطبة النجوم، والتقرب إلى الشياطين وما أشبه ذلك من النفث في العُقد، والذي لا يكون إلا عن طريق الشياطين، والإشراك بالله -عز وجل- فهذا هو الكفر المخرج من الملة، وهو الذي يُقتل صاحبه حداً، وأما النوع الذي يعتمد على خفة اليد فهذا لا يقتل صاحبه على الأرجح، لكن يعزر بما يردعه، ولهذا مثل هذه الألعاب المفروض أنها تمنع، وأن الهيئة أو غير الهيئة لا يسمحون ببيعها، والنوع الآخر هو ما يعتمد على معرفة خواص المواد، ولهذا بعضهم يقول: إن هذه العصيّ وكذا هي أشياء كانت محشوة بالزئبق، فتحركت بناء على ذلك، لكن الله -عز وجل- يقول: {سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ} فدل على أن

السحر هو سحر تخييل، أما معرفة خواص المواد فقد ذكرته في درس الأوهام، وإتباع الأوهام مثل الذي يأتي بمادة مخدرة ويأتي للناس بحمامة ويضغط رقبتها فتدوخ ويغمى عليها من المادة المخدرة، ثم يرميها، ويظنونها ماتت، فيأخذها وينفضها فتفيق ثم يلقيها في الهواء وتطير، ويزعم أنه أحياها بمعرفة خواص المواد، وهكذا ذلك الرجل الذي كان يأتي بعصا، ويأتي بمادة تشبه السكر ويقول: إنها سكر، إذا وضع في رأس العصا مادة مقابلة لها يحصل الاشتعال، فيأتي ويقربها منها ويقول: انظروا كيف أشعل السكر، فهذه معرفة خواص المواد، وهكذا الذي جاء وصنع جهازاً ليوضع على قبة رجلٍ يعظمه اليهود، فيصدر صوتاً مثل صوت صغار طائرٍ يقال له: البراصل، فإذا صوّت هذا الصغير جاءت الكبار من الطيور وألقت عليه الزيتون، فجعل الجهاز إذا هبت الريح أصدر صوتاً مثل صوت هذا الطير، فتأتي الطيور من هذا النوع وتلقي الزيتون، فوضعه على فتحة في قبة على قبر معظم عندهم، وأظهر النسك، وسأل: متى مات هذا الحبر؟ فقالوا: في الوقت الفلاني، فصار يفتح هذه في يوم مولده وتلقى الطيور الزيتون ويسقط على القبر، فقالوا هذه كرامة، ففتنوا بذلك، فهذا أيضاً من معرفة خواص المواد، فعلى كل حال السحر أنواع، والسحر الذي جاءوا به هو سحر تخييل، وهنا قال الله تعالى: {سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [سورة الأعراف: (١١٦)]، فكيف كان هذا السحر عظيماً وهو سحر تخييل؟، وصفه الله بأنه عظيم، والواقع أنه عظيم باعتبار أنهم جاءوا بكميات هائلة من العصيّ والحبال فصارت أمام الناس كأنها حيات، فكأن المكان امتلأ بالحيات، فهو عظيم بهذا الاعتبار، وإلا فهو من قبيل سحر التخييل، فهذا الجمع بين هذه الآية والآية الأخرى، والله تعالى أعلم.

وقوله: {فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مّوسَىَ}، أي: خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم، ويغتروا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة: أن ألقِ ما في يمينك.

قيل: يحتمل أن يكون خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم، وقيل: يحتمل أنه خاف أن يلتبس على الناس باعتبار أنهم جاءوا بعصيّ، وآيته كانت العصا، وهذا أبعد، ويمكن أنه لما رأى هذا المشهد من تحول الوادي إلى حيات يركب بعضها بعضاً، وهي كثيرة جداً، وعددها هائل، ولهذا قال الله -عز وجل-: {سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ}، والرهبة: الخوف الشديد، فقد يكون موسى -عليه الصلاة والسلام- حصل له الخوف لما رآها فثبته الله -عز وجل-، فموسى -عليه الصلاة والسلام- حينما رأى العصا تنقلب إلى حية في البداية خاف، وقال الله -عز وجل-: {وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ} [سورة القصص: (٣١)]، حتى قال الله -عز وجل- له: {أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ} وقال له: {إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ} فكان هذا تطميناً له، وكان مشاهدة هذه قبل أن يذهب إلى فرعون أشبه ما يكون بالترويض والتطبيق العملي قبل المواجهة، فيكون قد عرف هذه العصا وكيف يتعامل معها في هذه الحال، فإذا جاء إلى المواجهة مع فرعون يكون قد تهيأ وأعد نفسه، فلا يكون الموقف مفاجئا له، فتنقلب حية قبل أن يشاهدها، فيخاف منها موسى -عليه الصلاة والسلام-، فلو أرسله الله وقال: سنظهر لك آية، فصارت العصا حية عظيمة، لكان موسى -عليه الصلاة والسلام- خاف منها كما خاف فرعون، ومثل هذا لا يكون بذلك التأثير إذا اشترك معه في الخوف منها.

فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ألقِ ما في يمينك، يعني عصاك، فإذا هي تلقف ما صنعوا، وذلك أنها صارت تنيناً عظيماً هائلاً ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس.

يبقى كونها ذات قوائم وعنق يحتاج إلى دليل، وهذا مأخوذ من الإسرائيليات وهؤلاء أكذب الناس، فالله أخبر أنها حية، أما كون لها قوائم وعنق وأضراس فهذا يحتاج إلى دليل، فإذا قيل: حية فنحن نعرف الحية ما هي.

فجعلت تتبع تلك الحبال والعصيّ حتى لم تُبق منها شيئاً إلا تلقفته وابتلعته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جهرة نهاراً ضحوة، فقامت المعجزة واتضح البرهان، ووقع الحق وبطل السحر، ولهذا قال تعالى: {إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}، فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء: كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سجداً لله وقالوا: {آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [سورة الأعراف: (١٢١-١٢٢)]، **ولهذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة.**

وهؤلاء السحرة اختُلف في عددهم اختلافاً كثيراً، وسيأتي ذكر هذه المسألة.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كانت السحرة سبعين رجلاً، أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء، وروى ابن أبي حاتم عن الأوزاعي قال: لما خر السحرة سجداً رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها، قال: وعن سعيد بن جبير قوله: {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً} قال: رأوا منازلهم تبين لهم في سجودهم، وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبي بزة.

قوله: " **كانت السحرة سبعين رجلاً**" هذا ليس محل اتفاق وهذا كله مما تُلُقي عن بني إسرائيل، فبعضهم يقول: كانوا اثنين وسبعين، وبعضهم يقول: كانوا ثمانين، وبعضهم يقول: هم أربعمائة، وبعضهم يقول: اثنا عشر ألفا، وبعضهم يقول: أربعة عشر ألفاً، وبعضهم يقول: ثمانون ألفا، وبعضهم يقول: تسعمائة ساحر، انظر إلى هذه الأعداد ما بين سبعين فرداً إلى ثمانين ألفا، فلا يقال: الذين رأوهم قدروهم أنهم سبعون، أو اثنان وسبعون إلى ثمانين شخصاً، فهذا من سبعين فردا إلى ثمانين ألفاً! فهذا رقم لا يمكن أن يلتبس، إلا أن هؤلاء الكذابين النفّاجين يختلقون مثل هذه الأشياء، فالله تعالى أعلم بعدد هؤلاء السحرة، وكُتبُ بني إسرائيل حافلة بهذه الأكاذيب.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً}** سماهم سحرة وهم قد تابوا من السحر وآمنوا، هذا باعتبار ما كان، كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ}** [سورة النساء: (٢)]، متى يعطى اليتيم؟ كما قال الله -عز وجل-: **{وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ}** [سورة النساء: (٦)] فإنما يعطى إذا تحقق فيه شرطان: البلوغ، مع حسن التصرف في المال، فسماهم يتامى، وقد فارقوا حال اليتم، فصاروا رجالاً، فهنا ألقي السحرة: باعتبار ما سبق وإلا فهم لم يبقوا سحرة.

قال الشنقيطي -رحمه الله تعالى-: وقوله: {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ} يدل على أن الموعد في الآية اسم زمان.

لأن بعضهم يقول: إن الموعد الذي وعدهم مكان، فيوم الزينة يعني: السوق مثلاً هذا مكان، وفي أي وقت؟ وبعضهم يقول: لا، هذا زمان، يوم عيد، وفي أي مكان إذن؟ فبعض أهل العلم يقول: لا منافاة بين هذا وهذا، فيوم الزينة هو يوم العيد، والمكان الذي يجتمعون فيه سوقُهم، فيكون حدد الزمان والمكان بهذه العبارة.

فإن قلنا إن الموعد في الآية مصدر أشكل على ذلك ذكر المكان في قوله: {مَكَاناً سُوًى}، والزمان في قوله: {يَوْمُ الزِّينَةِ} وإن قلنا: إن الموعد اسم مكان أشكل عليه قوله {لا نُخْلِفُهُ} لأن نفس المكان لا يخلف وإنما يخلف الوعد، وأشكل عليه أيضاً قوله: {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ}، وإن قلنا: إن الموعد اسم زمان أشكل عليه أيضاً قوله: {لا نُخْلِفُهُ}، وقوله {مَكَاناً سُوًى}: هذه هي أوجه الإشكال في هذه الآية الكريمة. وللعلماء عن هذا أجوبة منها ما ذكره الزمخشري في الكشاف قال: لا يخلو الموعد في قوله {فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً} ...

هذه الإشكالات التي ذكرها في {اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى} إذا قيل: إنه الزمان فكيف قال: مكاناً؟ وإذا قيل: إنه مكان، فكيف قال: لا نخلفه؟ وهذه قد تمر على كثير من الناس، يقرأ هذه الآيات ولا يقف عند هذا، ولا يخطر له في بال، ولا يدور في خيال، فمثل هذه الأشياء تأتي بالتدبر، ولذلك شتان ما بين قراءة وقراءة.

قال مقيده -عفا الله عنه وغفر له-: أظهرُ ما أُجيب به عما ذكرنا من الإشكال عندي في هذه الآية الكريمة: أن فرعون طلب من موسى تعيين مكان الموعد، وأنه يكون مكاناً سُوًى، أي وسطاً بين أطراف البلد كما بيَّنا، وأن موسى وافق على ذلك وعين زمان الوعد وأنه يوم الزينة ضُحى؛ لأن الوعد لابد له من مكان وزمان، فإذا علمت ذلك فاعلم أن الذي يترجح عندي المصير إليه هو قول من قال في قوله: {فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً} إنه اسم مكان أي مكان الوعد، وقوله {مَكَاناً} بدل من قوله موعداً؛ لأن الموعد إذا كان اسم مكان صار هو نفس المكان، فاتضح كون {مَكَاناً} بدلا، ولا إشكال في ضمير {نُخْلِفُهُ} على هذا، ووجه إزالة الإشكال عنه أن المعروف في فن الصرف: أن اسم المكان مشتق من المصدر كاشتقاق الفعل منه، فاسم المكان ينحل عن مصدر ومكان، فالمنزل مثلاً مكان النزول، والمجلس مكان الجلوس، والموعد مكان الوعد، فإذا اتضح لك أن المصدر كامنٌ في مفهوم اسم المكان فالضمير في قوله {لا نُخْلِفُهُ} راجع إلى المصدر الكامن في مفهوم اسم المكان، كرجوعه للمصدر الكامن في مفهوم الفعل في قوله: {اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [سورة المائدة: (٨)] فقوله {هُوَ} أي: العدل المفهوم من {اعْدِلُوا} وكذلك قوله تعالى: {لا نُخْلِفُهُ}، أي: الوعد الكامن في مفهوم اسم المكان الذي هو الموعد؛ لأنه مكان الوعد، فمعناه مركب إضافي وآخر جزأيه لفظ الوعد، وهو مرجع الضمير في {لا نُخْلِفُهُ}.

فإذا عرفت معنى هذا الكلام الذي أخبر الله أن فرعون قاله لموسى، فاعلم أن قوله عن موسى: {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ} يدل على أنه وافق على طلب فرعون ضمناً، وزاد تعيين زمان الوعد بقوله: {مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ} ولا إشكال في ذلك. هذا هو الذي ظهر لنا صوابه، وأقرب الأوجه التي ذكرها العلماء بعد هذا عندي قول من قال: إن الموعد في الآية مصدر وعليه فـ {لا نُخْلِفُهُ} راجع للمصدر، و{مَكَاناً} منصوب

بفعل دل عليه الموعد، أي: عِدْنا مكاناً سوى، ونصْبُ المكان بأنه مفعول المصدر الذي هو {مَوْعِداً} أو أحد مفعولي {اجْعَلْ} غير صواب -فيما يظهر لي- والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {مكاناً سوىً}، قرأه ابن عامر وعاصم وحمزة: {سُوى} بضم السين والباقون بكسرها، ومعنى القراءتين واحد كما تقدم.

{اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا} الموعد باعتبار أنه مكان الوعد، لكن اسم المكان كما قال كامنٌ فيه معنى المصدر، فهو مكان الوعد {اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ} ليس بإخلاف المكان، وإنما لا نخلف الوعد، وهو المصدر الكامن في اسم المكان، فالوعد هو المصدر، والموعد اسم مكان، ولهذا قال بعده: {لَّا نُخْلِفُهُ} يعني الوعد الكامن في اسم المكان –الموعد-، ويكون بهذا قد جمع بين هذا وهذا.

تنبيه: في قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي} [سورة طه: (١٨)]، ذكرت قبل يومين قراءة: {أهس}، قلت هذه قراءة ابن كثير أو ابن عامر أو نافع، أخطأت، وليست قراءة متواترة بل منسوبة إلى النخعي، وعكرمة.

فائدة: هل خُير موسى -عليه السلام- في صغره بين تمرة وجمرة؟

حديث الفتون الطويل عن ابن عباس -رضي الله عنهما- متلقًى عن بني إسرائيل، وإن وجدت بعض الجمل جاءت في بعض الأحاديث الصحيحة، لكن ورد فيه: أنه خير بين جمرتين ولؤلؤتين، وذلك أن فرعون همّ به، فقالت امرأته: ما الذي حملك على ذلك؟ ماذا رأيت من هذا الصغير؟ قال: أما رأيتِه يصرعني ويعلوني؟، فذكرت أن هذا طفل ولا يفهم، وعرضت عليه أن يخيره بين لؤلؤتين وجمرتين، وقالت: إن اختار الجمرتين فهو بريء، وإن اختار اللؤلؤتين فهو يفهم، فأراد أن يأخذ الجمرتين، فمنعه من ذلك؛ لئلا يحترق.

هذا الذي في حديث الفتون، لكن جاء عن بعض التابعين: أنه خير بين تمرة وجمرة، وهذا كأنه متلقًى عن بني إسرائيل، بمعنى أنه لا يثبت في هذا شيء يعتمد عليه، وما عندنا شيء نستطيع أن نستند إليه فنقول: إن هذا هو الذي حصل، وهذه الأخبار لا يعول عليها، والله أعلم.

سؤال: هذه النقلة لهؤلاء السحرة، كانوا سحرة ثم بعد ذلك {فاقض ما أنت قاض} لن نلتفت إليه، وهذا الإيمان...؟

هذا موضع يستوقف الإنسان كثيراً، وهؤلاء عتاة وسحرة، والسحرة هم من أقذر الناس نفساً، وأخبثهم طوية، ويأتون ويتحولون بهذه اللحظة بعدما كانوا يرجون عائدة فرعون ويؤكدون هذا ويسألونه: {أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين} مباشرة يسجدون، ثم يهددهم، ويتوعدهم بالصلب، وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، ثم يقفون أمامه بكل ثبات ويقولون له: {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [سورة طه: (٧٣)]، ثم عندهم من المفاهيم الصحيحة والمعلومات {إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى} [سورة طه: (٧٤)]، وأما ما ذكر من أنهم سجدوا ورأوا منازلهم في الجنة فهذا يعتمد على الأخبار الإسرائيلية وليس عندنا فيه شيء، فكيف جاءتهم مثل هذه الأشياء؟ أنه يكون في جهنم، ولا

يموت فيها ولا يحيا، وأن المؤمن يكون في حال أخرى، له الدرجات العلى، وذكروا الجنة وما فيها من النعيم، قالوا: {وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} يعني: منك ومن ثوابك ومن عذابك ووعدك ووعيدك، فمن أين جاءهم هذا الثبات العظيم أمام فرعون وآثروا الموت، والقتل بهذه الطريقة في سبيل طلب مرضات الله -عز وجل-، والرجل منا ينشأ على الإسلام ونحو ذلك ولا يكون عنده من الثبات ما يداني ثبات هؤلاء السحرة، كيف تحولوا إلى هذه الحال؟! هذا أمر عجيب! وهذا يدل على أن الإيمان يفعل في النفوس شيئاً عظيما، ويحولها ويقلبها ولو كان صاحبها من أخبث الناس نفساً، فما بعد السحرة شيء، فقد تربوا على السحر، على أقذر الأشياء، ولك أن تتصور هذه الكلمة إلى أين تبحر معك، أقذر الأشياء من كل وجه، فالساحر يكتب القرآن بدم الحيض، ويضع أوراق المصحف على الأقذار، ويعيش بين الكلاب، وفي الكهوف وفي المقابر، ويعيش بين القذر، ولا يتنزه ولا يتطهر من النجاسات، ويفعل الفواحش بجميع أشكالها، ويتقرب إلى الشياطين ويعبد غير الله -عز وجل-، فهو من أوسخ الناس وأسوئهم ظاهراً وباطناً، ثم يتحول إلى هذا الثبات!، هذا يدل على أن الإيمان يفعل بالنفوس أشياء عجيبة فيحولها إلى شيء آخر وربما في لحظات، فهذا الإيمان الحقيقي المؤثر إذا خالطت بشاشته القلوب.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين:

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى * قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [سورة طه:٧١-٧٣]، يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم، وغُلب كل الغَلب شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة فتهددهم وتوعدهم وقال: {آمَنتُمْ لَهُ}، أي: صدقتموه {قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ}، أي: ما أمرتكم بذلك وافْتُتُّم عليّ في ذلك، وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ}، أي: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى واتفقتم أنتم وإياه عليّ وعلى رعيتي لتظهروه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: {إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}، ثم أخذ يتهددهم فقال: {فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}، أي: لأجعلنكم مُثلة، ولأقتلنكم ولأشهرنكم، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: فكان أول من فعل ذلك، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: {وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى}، أي: أنتم تقولون: إني وقومي على ضلالة وأنتم مع موسى وقومه على الهدى، فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه، فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم هانت عليهم أنفسهم في الله -عز وجل- و {قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ}، أي: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين، {وَالَّذِي فَطَرَنَا} يحتمل أن يكون قسماً، ويحتمل أن يكون معطوفاً على البينات، يعنون: لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم المبتدئ خلقنا من الطين فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت، {فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ}، أي: فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك، {إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}، أي: إنما لك تسلط في هذه الدار وهي دار الزوال، ونحن قد رغبنا في دار القرار، {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا}، أي: ما كان من الآثام خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله تعالى: {وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ} قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل، فأمر أن يُعلَّموا السحر بالفرماء، وقال: علموهم تعليماً لا يعلمه أحد في الأرض، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: فهم من الذين آمنوا بموسى وهم من الذين قالوا: {آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ}، وكذا قال عبد الرحمن بن

زيد بن أسلم، وقوله: {وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىَ}، أي: خير لنا منك {وَأَبْقَىَ}، أي: أدوم ثواباً مما كنت وعدتنا ومنّيتنا، والظاهر أن فرعون -لعنه الله- صمم على ذلك وفعله بهم رحمة لهم من الله، ولهذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغيره من السلف: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قول فرعون: {قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ} إنه لكبيركم، يقول الكسائي: في الحجاز يقول الصبي إذا جاء من معلمه أتيت من كبيري، وعلى هذا فالكسائي يقصد أن كبيرهم معلمهم، بحيث إن الكبير يطلق على المعلم، وبعضهم يقول: {لَكَبِيرُكُمُ}، أي: لعظيمكم، ولا منافاة، فمعلمهم يقال له ذلك ورئيسهم ومقدمهم وقائدهم يقال له هذا {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ}، وقوله: {فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ}، يعني: أنه يقطع مثلاً اليد اليمنى والرجل اليسرى، ولا تخفى النكاية التي تحصل بهذا حيث يضعف كل جانب منه، وقوله: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}، الصلب: هو أن يشد الإنسان إلى خشبة أو جذع أو نحو ذلك، وهو حي فيقتل كما فعل بخبيب بن عدي -رضي الله عنه-، أو يقتل ثم يصلب، ولهذا كثير من أهل العلم يقولون: إن قوله تعالى: {إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ} [سورة المائدة:٣٣] يقولون: يقتل ثم يصلب، وبعضهم يقول: إنه إن قتل ثم صلب فهو لا يشعر بشيء، فالعقوبة لا تردعه ولا تؤلمه؛ لأنه لا يشعر بهذا، ولهذا فإن بعضهم يرى أنه يصلب قبل القتل، وليس هذا محل اتفاق، فالأولون يقولون: إن صلبه بعد القتل يكون من أجل أن يراه الناس فيرتدعوا ويعتبروا، يقول بعض أهل العلم: إن "في" هنا بمعنى "على" في قوله: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}، وهذا لا إشكال فيه، لكن كما قال ابن القيم -رحمه الله-: إنه إذا استعمل حرف مكان حرف وناب عنه فإنه يبقى فيه من رائحة الحرف الأول ومعناه، ولهذا فإن بعضهم يقول: إن التعبير بـــ "في" هنا يدل على شدة الربط، فكأنه يربطهم ربطاً شديداً ويوثقهم بحيث كأنه يدخلهم في وسط الجذع من شدة الربط، قال: لأن "في" تدل على الظرفية، {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}، وهو في الواقع يصلبه على الجذع وليس في داخل الجذع، قالوا: لشدة الربط كأنه أدخله في داخل الجذع، وجذوع النخل هي أشد إيلاماً إذا ربط الإنسان إليها، فلا يكون ذلك كربطه إلى جذع شجرة أخرى، ويقول: {وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى}، كأن موسى -عليه الصلاة والسلام- لم يتوعدهم بأن يعذبهم ولا يملك هذا، فبعضهم يقول: إن فرعون قال ذلك: {وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى} من باب الرد على موسى -عليه الصلاة والسلام- حيث ذكرهم بعذاب الله -عز وجل-، {فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ} [سورة طه:٦١]، {وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ} وبعضهم قال: هذا ابتداءً، وإن كان موسى -عليه الصلاة والسلام- لم يتوعدهم بعذاب، لكن أراد أن يقرر شدة نكاله وأليم عقوبته، وقوله: {قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا} يحتمل معنيين كما أشار الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، {لَن نُّؤْثِرَكَ} لن نقدمك، ولن نختارك على ما جاءنا من البينات، فالمعنى الأول: لن نؤثرك على هذه الدلائل وعلى الله -عز وجل- {وَالَّذِي فَطَرَنَا}، يعني: لا نؤثرك على هذه الآيات والبينات والبراهين وما يستدعيه هذا من اتباع الحق وعلى الذي فطرنا، فيكونون قصدوا أنهم لا يؤثرونه على الدلائل ولا على الله -جل جلاله-.

والمعنى الثاني: أنهم لا يؤثرونه على هذه البينات والدلائل والبراهين، لن نقدمك على هذه الأشياء الدامغة ثم أقسموا {وَالَّذِي فَطَرَنَا}، أي: لا نفعل، فالآية تحتمل المعنيين، والله تعالى أعلم.

وقوله: {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ}، هل أكرههم فرعون على السحر وقد جاءوا وهم يطمعون في عائدته وجائزته؟، وقالوا له: {أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ}، والأثر الذي ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله عن ابن عباس -رضي الله عنهما- يدل على أن الإكراه وقع لبعضهم وهم هؤلاء الصغار الذين أمر بتعليمهم، أخذوا من أهلهم من أجل أن يُعلَّموا، وبه قال ابن زيد، وهذا من حيث كلام العرب، يصح، يعني باعتبار أن السحرة غير هؤلاء أيضاً، ابن عباس لا يقصد أن السحرة هم فقط مجموعة من الصغار أُخذوا وعلموا، وابن عباس لا يقصد أنه جيء بالتلاميذ، وأنهم أكرهوا، فيَرِدُ على هذا القول سؤال أنه كيف نسب إليهم الإكراه إلى المجموع، وإنما أكره هؤلاء فقط، هذه المجموعة التي عُلمت والبقية ما أكرهوا، بقية السحرة؟، فهذا يمكن أن يخرج تخريجاً يصح وجهه في كلام العرب، وهو أنه قد ينسب إلى الطائفة ما قد صدر من بعضها، وهذا له نظائر في كلام الله وفي كلام العرب، فالله -عز وجل- يقول: {فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ} [سورة البقرة:١٩١] قراءة نقرأ بها، وهناك قراءة: {فإن قتلوكم فاقتلوهم} فالمعنى فإن قتلوا بعضكم فاقتلوهم، يعني: من بقي منهم حياً فيقتلون أولائك، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ} [سورة التوبة:٣٠]، مع أنه لم يقل بهذا جميع اليهود، وإنما صدر من بعضهم، وهكذا في قول النصارى المسيح ابن الله، النصارى معروف أنهم اختلفوا في المسيح، فبعضهم قالوا: هو الله، وبعضهم قالوا: هو ابن الله، وبعضهم قالوا: هو ثالث ثلاثة، فيصح أن ينسب إلى الطائفة الفعل الذي يصدر من بعضها، فيكون هنا {وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ} صدر هذا من طائفة أُكرهوا على السحر ولم يُكرَه الجميع عليه، لكن يبقى إشكال من جهة أخرى وهو أنه الآن يريد أن يواجه موسى -عليه الصلاة والسلام-، وموسى وعدهم بيوم الزينة، ويوم الزينة هذا كأقصى حد، أقصى مدة، يعني: يوم الزينة يوم معلوم يأتي، فلو كان هذا الكلام وقع في يوم الزينة وأنه ما يأتي بالعام إلا مرة واحدة مثلاً، فأقصى أمد سنة، مع أن الغالب أن ذلك الموعد لا يكون بعد سنة؛ لأن فرعون محتدم النفس، غاضب ويريد الخلاص منهم والمفاصلة، وقد ضاق بهم ذرعاً، فوعدوه في وقت في الغالب لا يطول، ولهذا قال الله -عز وجل-: {فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى} [سورة طه:٦٠] الفاء تدل على التعقيب المباشر، فالشاهد أن هذه المدة ولو كانت سنة لا يمكن لأناس صغار أن يتعلموا بحيث يكونون مهرة في السحر وحُذّاقاً به، وأرسل في المدائن من أجل {يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} [سورة الأعراف:١١٢]، {يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ} [سورة الشعراء:٣٧]، فالله أعلم.

بعض أهل العلم يقول: إن فرعون أكرههم على المجيء؛ لأنه أرسل في المدائن من يحشرهم، ويأتي بهم، لكن حينما جاءوا ما أكرهم على فعل السحر وإنما هم يزاولون صنعتهم، ومهنتهم المحببة إلى نفوسهم، وطمعوا بما عند فرعون وقالوا له ما قالوا: {أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ} [سورة الشعراء:٤١]، فالإكراه قالوا حصل أولاً، وقالوا له هذا، {وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} خير منك ومن عدتك وجائزتك وأبقى منك ومن عطائك، وكل هذا يدخل فيه، وروي عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: "**أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء**"؛ لأنه

قتلهم، وبعضهم يقول: إنه لم يقتلهم، وليس عندنا دليل يدل على أنه قتلهم أو لم يقتلهم، لكن الغالب فيمن كان بمثل هذه المنزلة أنه ينفذ هذا الوعيد، لاسيما أن هذا الأمر الذي وقع هو بالنسبة إليه يعتبر كارثة، فخرج أهل البلد يتفرجون فرأوا هذه الآية العظيمة، ورأوا السحرة يسجدون فهو أراد أن يتخلص من هذا بقول وفعل، القول قال لهم: {إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ} [سورة الأعراف:١٢٣] القضية كانت مدبرة ومرتبة ومخطط لها من أجل المكابرة، يقول للناس: هذا الذي ترونه تمثيلية لا حقيقة لها، والفعل: هو القضاء على هؤلاء السحرة والنكال بهم، والنكال أيضاً بموسى -عليه الصلاة والسلام- وبني إسرائيل، ولهذا قال له الملأ: {أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ} [سورة الأعراف:١٢٧]، هو فرعون بحاجة إلى من يحرضه؟! لكن الملأ قذر مثله، وهم خاصته وحاشيته، {أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ}، ولهذا قال موسى -عليه الصلاة والسلام- لقومه: {اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}[سورة الأعراف:١٢٨-١٢٩] فالشاهد أن أهل العلم اختلفوا في هذا هل قُتل هؤلاء السحرة أو لم يقتلوا؟ فالله تعالى أعلم.

قال الشنقيطي -رحمه الله تعالى-: "وفي آية {طه} هذا سؤال معروف، وهو أن يقال: قولهم: {وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ}، يدّل على أنه أكرههم عليه، مع أنه دلّت آيات أخر على أنهم فعلوه طائعين غير مكرهين، كقوله في طه: {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى} [سورة طه:٦٢-٦٤]، فقولهم: {فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً} صريح في أنهم غير مكرهين، وكذلك قوله عنهم في الشعراء: {قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [سورة الشعراء:٤١-٤٢]، وقوله في الأعراف: {قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [سورة الأعراف:١١٣-١١٤]، فتلك الآيات تدّل على أنهم غير مكرهين.

وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة معروفة:

منها: أنهم أكرههم على الشخوص من أماكنهم ليعارضوا موسى بسحرهم، فلما أكرهوا على القدوم وأُمروا بالسحر أتوه طائعين، فإكراههم بالنسبة إلى أول الأمر وطوعهم بالنسبة إلى آخر الأمر، فانفكت الجهة وبذلك ينتفي التعارض، ويدّل لهذا قوله: {وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} [سورة الشعراء:٣٦]، وقوله: {وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} [سورة الأعراف:١١١].

ومنها: أنه كان يكرههم على تعليم أولادهم السحر في حال صغرهم، وأن ذلك هو مرادهم بإكراههم على السحر، ولا ينافي ذلك أنهم فعلوا ما فعلوا من السحر بعد تعلمهم وكبرهم طائعين.

ومنها: أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً، ففعل فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر الساحر؛ لأن الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى إلا أن يعارضوه، وألزمهم بذلك، فلما لم يجدوا بُداً من ذلك فعلوه طائعين. وأظهرها عندي الأول، والعلم عند الله تعالى"[1].

وقال رحمه الله في قوله تعالى: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}: "ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن سحرة فرعون لما آمنوا برب هارون وموسى قال لهم فرعون منكراً عليهم: {آمَنْتُمْ لَهُ}، أي: صدقتموه في أنه نبي مرسل من الله، وآمنتم بالله قبل أن آذن لكم، يعني: أنهم لم يكفوا عن الإيمان حتى يأذن لهم، لأنه يزعم أنه لا يحق لهم أن يفعلوا شيئاً إلا بعد إذنه هو لهم، وقال لهم أيضاً: إن موسى هو كبيرهم، أي: كبير السحرة وأستاذهم الذي علمهم السحر، ثم هددهم مقسماً على أنه يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف: يعني اليد اليمنى والرجل اليسرى مثلاً؛ لأنه أشد على الإنسان من قطعهما من جهة واحدة؛ لأنه إن كان قطعهما من جهة واحدة يبقى عنده شق كامل صحيح، بخلاف قطعهما من خلاف، فالجنب الأيمن يضعف بقطع اليد، والأيسر يضعف بقطع الرجل كما هو معلوم، وأنه يصلبهم في جذوع النخل"[2].

وقال الشنقيطي -رحمه الله تعالى-: "واعلم أن العلماء اختلفوا: هل فعل بهم فرعون ما توعدهم به، أو لم يفعله بهم؟ فقال قوم: قتلهم وصلبهم، وقوم أنكروا ذلك، وأظهرهما عندي: أنه لم يقتلهم، وأن الله عصمهم منه لأجل إيمانهم الراسخ بالله تعالى؛ لأن الله يقول لموسى وهارون: {أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ} [سورة القصص:٣٥] والعلم عند الله تعالى"[3].

والقول بأنه لم يقتلهم باعتبار أن الله -عز وجل- قال: {أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ} ليس بصريح في أن هؤلاء السحرة لم يقتلوا، فالعبرة بالعواقب والنهايات، فقتل بعضهم وظهور من لم يقتل بعد ذلك في آخر الأمر يكفي أن يكون مصداقاً لهذا الوعد، فالرسل -عليهم الصلاة والسلام- الله وعد بنصرهم، وظهورهم وغلبتهم، ومع ذلك قتل بعض أتباعهم قبل أن يروا هذا النصر كما حصل لبعض أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، بل إن الله -تبارك وتعالى- قال في أتباع المسيح -عليه الصلاة والسلام-: {فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [سورة الصف:١٤]، وكثير من أهل العلم من يقول بأنه لم يكن لأصحاب المسيح -عليه الصلاة والسلام- ولأتباعه من أهل التوحيد ظهور، وهذا صحيح، إنما كان ظهورهم ببعث النبي -صلى الله عليه وسلم- فحصل ما حصل لليهود من هزيمة، وقتل، وما إلى ذلك، وبعضهم يقول: الذين ظهروا هم من لهم شائبة في اتباع المسيح -عليه الصلاة والسلام- وإن لم يكونوا على الحق، الذين ظهروا هم أهل الإشراك، أهل التثليث أتباع قسطنطين الملك الذي دخل في النصرانية فأفسدها.

---

١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (٤/٦٦- ٦٧).

٢ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (٤/٦٣).

٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (٤/٦٥).

وقوله: {إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى * وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى} [سورة طه:٧٤-٧٦].

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد فقالوا: {إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً}، أي: يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم، {فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى}، كقوله: {لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ} [سورة فاطر:٣٦]، وقال: {وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى}[سورة الأعلى:١١-١٣]، وقال تعالى: {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ} [سورة الزخرف:٧٧]، **وروى الإمام أحمد بن حنبل عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم فتميتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً أُذن في الشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبُثوا على أنهار الجنة فيقال: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل))، فقال رجل من القوم: كأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان بالبادية[٤]، وهكذا أخرجه مسلم في كتابه الصحيح.**

قوله -تبارك وتعالى-: **{لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى}** المقصود بهذا: أنه لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة معتبرة أو حياة ينعم فيها، أو يجد فيها طعم الحياة، والناس تعبر بمثل هذا، تقول فلان ليس بحي ولا ميت، يعني: يقال لمن كان في غيبوبة مثلاً، مع أنه حي لكن ليس بحيٍّ الحياة التي ينتفع بها، ولا بميت، وهكذا من اشتد به المرض وإلا فإن أهل النار كما هو معلوم لا يموتون، وقوله هنا بالحديث: ((فجيء بهم ضبائر ضبائر)) يعني: جمع ضبارة، أي: جماعات في تفرقة، يقول: ((فينبتون فيها نبات الحبة)) الحبة، فسر هذا بزرع البقول، وحب الرياحين، وقيل نبتة صغيرة تكون بين الحشائش، وفي حميل السيل، يعني: ما يحمله السيل من قش وشوائب وما أشبه ذلك، ((ينبتون كما تنبت الحبة))، أحياناً تنبت نبتة خضراء صغيرة منثنية، صغيرة ضعيفة ثم بعد ذلك تبدأ شيئاً فشيئاً تنمو وترتفع، فهذا الصحابي يقول: كأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان بالبادية؛ لأن هذه من الأشياء التي يراها الناس في البادية، يعني: وصفَ ذلك وصفاً دقيقاً.

وقوله تعالى: {وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ}، أي: ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب قد صدق ضميره بقوله وعمله {فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى}، أي: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطيبات، روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله

---

٤ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار، برقم (١٨٥)، وأحمد في المسند برقم (١١٠٧٧)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

عليه وسلم- قال: ((الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس))[٥] ورواه الترمذي.

وفي الصحيحين: ((إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء لتفاضل ما بينهم)) قالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء؟ قال: ((بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين))[٦]، وفي السنن: ((وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما))[٧].

وقوله: {جَنَّاتُ عَدْنٍ}، أي: إقامة، وهي بدل من الدرجات العلى، {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا}، أي: ماكثين أبداً، {وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى}، أي: طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، واتبع المرسلين فيما جاءوا به من خبر وطلب.

{وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى} [سورة طه:٧٧-٧٩]، يقول تعالى مخبراً أنه أمر موسى -عليه السلام- حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل أن يسري بهم في الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون، وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة، وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضباً شديداً، وأرسل في المدائن حاشرين، أي: من يجمعون له الجند من بلدانه ورَساتيقه، يقول: {إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ}[سورة الشعراء: ٥٤-٥٥]، ثم لما جمع جنده واستوثق له جيشه، ساق في طلبهم فأتبعوهم مشرقين، أي: عند طلوع الشمس {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ} [سورة الشعراء:٦١]، أي: نظر كل من الفريقين إلى الآخر، {قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}، ووقف موسى ببني إسرائيل البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه {فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً} فضرب البحر بعصاه وقال: انفلقْ عليّ بإذن الله، {فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} [سورة الشعراء:٦٣]، أي: الجبل العظيم، فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابساً كوجه الأرض، فلهذا قال: {فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاّ تَخَافُ دَرَكاً}، أي: من فرعون {وَلاَ تَخْشَى}، يعني: من البحر أن يغرق قومك، ثم قال تعالى: {فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ}، أي: البحر {مَا غَشِيَهُمْ}،

---

٥ - رواه الترمذي، كتاب صفة الجنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في صفة درجات الجنة، برقم (٢٥٣٠)، واللفظ له، وأحمد في المسند برقم (٢٢٠٨٧)، وقال محققوه: حديث صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٩١٣)، وفي تحقيق مشكاة المصابيح برقم (٥٦١٧).

٦ - رواه البخاري برقم (٣٠٨٣)، عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-: عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم))، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: ((بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين))، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، برقم (٢٨٣١).

٧ - رواه أبو داود، كتاب الحروف والقراءات، برقم (٣٩٨٧)، من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-، وأحمد في المسند برقم (١١٤٦٧)، وقال محققوه: صحيح لغيره، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٣٠٠٧).

أي: الذي هو معروف ومشهور وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: {وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى} [سورة النجم:٥٣-٥٤].

بعضهم يقول: {فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ} مما قد علمتم أن الأمر المعلوم يقال فيه ذلك، ولكن يبقى أن مثل هذا له دلالة وهو التعظيم والتهويل، فهذا التعبير بالاسم الموصول المبهم، يعني: ما قال فغشيهم اليم، وإنما قال: {فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ}، فأبهم الاسم الموصول، فهذا أبلغ وأكثر وقعاً في النفوس، وكقوله -تبارك وتعالى- أيضاً في الاستفهام {الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ} [سورة الحاقة:١-٢]، فهذا أبلغ وأشد وقعاً في النفوس في مقامات الوعيد، أو في مقام التعظيم للجزاء ونحو ذلك {فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى}، ديار قوم لوط غشاها ما غشى من الحجارة، لكن إذا قال: {فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى} يكون هذا أكثر تأثيراً ووقعاً.

وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم، فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد، كذلك {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ}[سورة هود:٩٨].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى}، فإنه لم يهدهم، وهذا لا شك أن فيه من التأكيد ما فيه بأنه ضلال محقق لا يحتمل الهدى بوجه من الوجه، يعني -أحياناً- قد يكون الشيء فيه ضلال من ناحية وفي مضامينه هدى من وجه آخر مثلاً، أو خير أو نحو هذا، وقوله -عز وجل-: {وَمَا هَدَى}، قد يعْقبُ هذا الإضلالَ هدايةٌ بعد ذلك، أما فرعون فهو إلى آخر لحظة حيث كانت النهاية الغرق، وهو يلاحق موسى -عليه الصلاة والسلام- ويريد الفتك به ومن معه، {وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى} -نسأل الله العافية-، فقد تحصل الهداية بعد إضلال الإنسان، ويرجع كما حصل لبعض كبراء المشركين، أضلوا قومهم وقادوهم إلى حرب النبي -صلى الله عليه وسلم- كما فعل أبو سفيان ثم بعد ذلك كانت النهاية الاهتداء، أما هذا فنسأل الله العافية.

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى * كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى * وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى} [سورة طه:٨٠-٨٢]، يذكر تعالى نعمه على بني إسرائيل العظام ومننه الجسام؛ حيث أنجاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة لم ينج منهم أحد، كما قال: {وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} [سورة البقرة:٥٠]، وروى البخاري عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون، فقال: ((نحن أولى بموسى فصوموه))[٨] رواه مسلم أيضاً في صحيحه، ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن وهو الذي كلمه الله تعالى عليه وسأل فيه الرؤية وأعطاه التوراة هنالك، وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل كما يقصه الله تعالى قريباً، وأما المن والسلوى فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وغيرها، فالمن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء، والسلوى طائر يسقط

---

٨ - رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب إتيان اليهود النبي -صلى الله عليه وسلم- حين قدم المدينة، برقم (٣٧٢٧)، ومسلم، كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، برقم (١١٣٠).

عليهم فيأخذون من كلٍّ قدرَ الحاجة إلى الغد، لطفاً من الله ورحمة بهم وإحساناً إليهم، ولهذا قال تعالى: {كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي}، أي: كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم ولا تطغوا في رزقي فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما أمرتكم به {فَيَحِلّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي}، أي: أغضب عليكم، {وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىَ}، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أي فقد شقي.

في قوله -تبارك وتعالى-: {وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ} كما قلنا: الجبل ليس له أيمن ولا أيسر وإنما ذلك بحسب من يحتف به أو يمر بجانبه، يعني على يمينه، والمواعدة هنا {وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ} من أهل العلم من يقول: المواعدة كانت لموسى -عليه الصلاة والسلام-، ولما كانوا أتباعاً له أضاف ذلك إلى المجموع، {وَوَاعَدْنَاكُمْ}، وبعضهم يقول: إن الله وعد موسى -عليه الصلاة والسلام- وهم معه بحيث يسمعون الله -تبارك وتعالى- يناجيه، ولما كان موسى -عليه الصلاة والسلام- هو مقدمهم وإمامهم ونبيهم واعده الله -تبارك وتعالى- من أجل أن يناجيه فأضاف ذلك إلى المجموع، والله تعالى أعلم.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} يعني: في التيه الذي حصل لهم كما هو معلوم، كان يظللهم الغمام وأنزل الله عليهم المن والسلوى، وكثير من المفسرين يفسرون المن بالترنجبين، وهو مادة صمغية بيضاء تنزل أشبه بالنداء على الأشجار يكون مثل العسل الأبيض، حلو الطعم ولا زال يعرف إلى اليوم، ويوجد شيء يباع يسمى بالمن في بعض أماكن الحلويات موجود في مكة يأتون به من العراق، وأهل العراق يعرفونه، والأقرب أن المن هو كل ما يحصل للإنسان من غير كده وتعبه، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الكمأة من المن))[٩]، والكمأة تخرج من غير عمل الإنسان، ويدخل فيه الترنجبين إلى غير ذلك، وأما السلوى فكثير من المفسرين يقولون: هو طائر وهذا هو الراجح، وبعضهم يقول: هو السُّمانا، وبعضهم يقول: يشبه السُّمانا.

وقوله: {وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي} قراءة الكسائي: {فيَحُلّ عليكم غضبي ومن يحْلُل عليه غضبي فقد هوى} يحُل، يعني: ينزل بكم، حلّ يحُل، أي: نزل، وفي قراءة الجمهور: {فيحِل، ومَن يحلِل}، يعني: فيجب، وقد يقال: إن القراءتين ترجعان إلى معنى واحد؛ لأن بعضهم يقول: هما لغتان، إذا تأملت في المعنى الثاني الذي ذكروه حلّ يحِل، قالوا بمعنى: يجب، فإن الوجوب يأتي بمعنى السقوط، {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا} [سورة الحج:٣٦]، يعني: وقعت على الأمر، فيرجع إلى المعنى الأول، {وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى}، يعني: صار إلى الهاوية، كما قال -عز وجل-: {فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} [سورة القارعة:٩]، ليس المقصود أمه يعني والدته، فالحاصل أن عاقبته إلى الخسران.

وقوله: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً}، أي: كل من تاب إليّ تبت عليه من أي ذنب كان، حتى إنه تاب تعالى على من عبد العجل من بني إسرائيل، وقوله تعالى: {تَابَ}، أي: رجع عما كان فيه من كفر

---

٩ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب وقوله تعالى: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [سورة البقرة:٥٧]، برقم (٤٢٠٨)، ومسلم، كتاب الأشربة، باب فضل الكمأة ومداواة العين بها، برقم (٢٠٤٩)، من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

أو شرك أو معصية أو نفاق، وقوله: {وَآمَنَ}، أي: بقلبه، {وَعَمِلَ صَالِحاً}، أي: بجوارحه، وقوله: {ثم اهتدى} قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهم-: أي ثم لم يشكك، وقال قتادة {ثُمّ اهْتَدَىَ} أي: لزم الإسلام حتى يموت، وثم هاهنا لترتيب الخبر على الخبر، كقوله: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تعميم معنى التوبة هو الأحسن والأقرب -والله تعالى أعلم-، وبعضهم يقيد ذلك بقوله: {لِّمَن تَابَ}، أي: من الإشراك، {وَآمَنَ}، أي: أخلص ووحد الله -تبارك وتعالى-، كما قال ابن جرير -رحمه الله-، {وَعَمِلَ صَالِحًا} فهذا كما يذكر الله -عز وجل- كثيراً الإيمان والعمل الصالح فإنه لابد منه، قال: {ثُمَّ اهْتَدَى}، يعني: لزم الصراط المستقيم، كما يقال: حسن إسلامه، فيلزم الجادة، ويراعي حدود الله -تبارك وتعالى-، ولا يكون ذلك في مدة ثم بعد ذلك يرجع ويترك ما هو فيه من العمل أو الإيمان أو نحو ذلك، {ثُمَّ اهْتَدَى} استقام سيره وصح سلوكه على الصراط المستقيم، ويقول: "**لترتيب الخبر على الخبر**"، يعني: لا بمعنى أن ذلك يكون بحسب الوقوع، هذا معنى ترتيب الخبر على الخبر، الترتيب: لا ترتيب الحصول والوقوع، بمعنى: ليس المقصود {ثُمَّ اهْتَدَى} التعقيب والتراخي، آمن، تاب وآمن، عمل صالحاً ثم اهتدى، إذا قلنا: ثم هنا للترتيب والتعقيب مع التراخي في الوقوع، فيكون الاهتداء يحصل بعد هذا كله، وليس هذا مقصوداً، وإنما المقصود أن هذا الإنسان يتصف ويتحقق بهذه الصفة مع الإيمان، والعمل الصالح، كما قال الله -عز وجل-: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} [سورة البلد:١٧]، يعني: ومع ذلك يكون بهذه الصفة، هذا معنى ترتيب الخبر على الخبر، يعني لا ترتيب الوقوع.

وصلى الله على محمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يَا مُوسَىَ * قَالَ هُمْ أُوْلاءِ عَلَىَ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىَ * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيّ * فَرَجَعَ مُوسَىَ إِلَىَ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتّمْ أَن يَحِلّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مّن رَّبّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مّوْعِدِي * قَالُواْ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمّلْنَا أَوْزَاراً مّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لّهُ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَذَا إِلَـهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىَ فَنَسِيَ * أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً} [سورة طه:٨٣-٨٩]، لما سار موسى -عليه السلام- ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون {فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة الأعراف:١٣٨]، وواعده ربه ثلاثين ليلة، ثم أتبعها له عشراً، فتمت أربعين ليلة، أي: يصومها ليلاً ونهاراً، فسارع موسى -عليه السلام- مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، ولهذا قال تعالى: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يَا مُوسَىَ قَالَ هُمْ أُوْلاءِ عَلَىَ أَثَرِي}، أي: قادمون ينزلون قريباً من الطور {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىَ}، أي: لتزداد عنى رضا، {قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ}، أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري، وكتب الله تعالى له في هذه المدة الألواح المتضمنة للتوراة كما قال تعالى: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}[سورة الأعراف:١٤٥]، أي: عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري.

وقوله: {فَرَجَعَ مُوسَىَ إِلَىَ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً}، أي -بعدما أخبره تعالى بذلك- في غاية الغضب والحنق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم، وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يَعلمُ كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم، ولهذا قال: رجع إليهم غضبان أسفاً، والأسف شدة الغضب، وقال مجاهد: غضبان أسفاً أي جزعاً، وقال قتادة والسدي: أسفا حزيناً على ما صنع قومه من بعده، {قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً}، أي: أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة، كما شاهدتم من نُصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه وغير ذلك من أيادي الله؟، {أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ}، أي: في انتظار ما وعدكم الله، ونسيان ما سلف من نعمه، وما بالعهد من قدم، {أَمْ أَرَدتّمْ أَن يَحِلّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مّن رَّبّكُمْ} أم هاهنا بمعنى بل، وهي للإضراب عن الكلام الأول وعدول إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي، قالوا: أي بنو إسرائيل في جواب ما أنّبهم موسى وقرعهم {مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا}، أي:

عن قدرتنا واختيارنا، ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر، فقذفناها أي ألقيناها عنا، وفي رواية السدي عن أبي مالك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، إنما أراد هارون أن يجتمع الحلي كله في تلك الحفيرة، ويجعل حجراً واحداً، حتى إذا رجع موسى -عليه السلام- رأى فيه ما يشاء، ثم جاء ذلك السامري فألقى عليها تلك القبضة التي أخذها من أثر الرسول، وسأل هارون أن يدعو الله أن يستجيب له في دعوته، فدعا له هارون -وهو لا يعلم ما يريد- فأجيب له، فقال السامري عند ذلك: أسأل الله أن يكون عجلاً، فكان عجلاً له خوار أي صوت، استدراجاً وإمهالاً ومحنة واختباراً، ولهذا قال: {فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لّهُ خُوَارٌ}.

وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فقالوا: {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىَ} قال: فعكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط يعني مثله، يقول الله: {فَنَسِيَ}، أي: ترك ما كان عليه من الإسلام يعني السامري، قال الله تعالى رداً عليهم وتقريعاً لهم وبياناً لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: {أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً}، أي: العجل، أفلا يرون أنه لا يجيبهم إذا سألوه ولا إذا خاطبوه، {وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً}، أي: في دنياهم ولا في أخراهم، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريحُ في دبره فيخرج من فمه فيسمع له صوت، وقد ورد في حديث الفتون عن الحسن البصري أن هذا العجل اسمه بهموت، وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم وعبدوا العجل، فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب، يعني هل يصلي فيه أم لا؟ فقال ابن عمر -رضي الله عنهما-: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعني الحسين- وهم يسألون عن دم البعوضة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} [سورة طه:٨٣-٨٤]، لما خرج بنو إسرائيل ونجاهم الله -عز وجل- من فرعون وأهلكه وأغرقه واعدهم الله -تبارك وتعالى- جانب الطور الأيمن، فتقدمهم موسى -عليه الصلاة والسلام- إلى الطور، وبقي بنو إسرائيل مع هارون -عليه الصلاة والسلام- فقال الله له: {وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى}، لماذا سبقتهم وخلفتهم وراءك؟ فقال: {هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}، وبعض المفسرين يورد سؤالاً وهو أن جواب موسى -عليه الصلاة والسلام- غير مطابق للسؤال، {وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}، ثم يذكر أجوبة، والذي يظهر -والله أعلم- أن الجواب مطابق للسؤال، ولكنه قدم بمقدمة وهي أنه قال: {هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي}، وإلا فالجواب: {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}، هذا الذي أعجله، المبادرة والمسارعة في طلب مرضاة الله -جل جلاله-، وقوله: {هُمْ**

أُولَاء عَلَى أَثَرِي} هذا له تعلق أيضاً بالجواب كأنه يقول: إنهم قريب مني، لم أتقدمهم بشيء كثير معتبر، كمن تقول له: أين أصحابك؟ فيقول: هم أولاء على أثري، هم قريب، تقول له: تقدمت أصحابك تعجلت، تركت أصحابك، يقول: هم أولاء على أثري، كأنه يقول: ما تركتهم هم قريب مني على الطريق، ليس بيني وبينهم شيء كثير، فكأنهم معه، **{هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي}** يأتون، **{وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}**، فقال الله له: **{فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ}** فتنا: الفتنة تطلق على الاختبار والامتحان، وتطلق على نتيجة حسنة كانت أو سيئة، وقيل لإدخال الذهب والمعدن في النار: فتنة، تقول: فتنته في النار، يقال ذلك للإحراق فيها؛ لأن ذلك يتخلص به صحيحه من شائبه، والله -تبارك وتعالى- يقول: **{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا}** [سورة البروج:١٠] يعني أحرقوهم بالنار، وهنا **{فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ}** فالله -تبارك وتعالى- ابتلاهم بهذا العجل الذي صار بهذه المثابة، ففتنّا فيه من فُتن منهم حتى عبدوه، وعكفوا على عبادته وادعوا أنه ربهم، بل كذبوا على موسى -عليه الصلاة والسلام- واجترءوا عليه وقالوا: إنه ذهب يطلب ربَّه، وربُّه هاهنا، وهذا السامري قيل: هو رجل من أهل السامرة، وقيل: كان من كبار بني إسرائيل، وقيل: كان جاراً لموسى -عليه الصلاة والسلام-، وقيل غير هذا، والحاصل أنه رجل ممن كان معهم، **{وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ}**، والله -تبارك وتعالى- أخبر موسى بذلك فرجع موسى -عليه الصلاة والسلام- إلى قومه غضبان أسِفاً، والأسَف: هو الغضب، والأسِف هو الغاضب، يقال ذلك لشدة الغضب، فلا تكرار، يعني: رجع غضبان شديد الغضب، ولا يقال: إن هذا تكرار، ولذلك لا حاجة لتفسيره بالغم أو الحزن أو نحو هذا من أجل التخيير، فلما جاء إليهم قال: **{يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا}**، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: أي أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة، وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم، وإظهاركم عليه وغير ذلك من أيادي الله؟، وهذا من أجمع ما قيل في تفسير الآية، وبعضهم يقول: وعدهم أن ينزل عليهم كتاباً فيه كل ما يحتاجون إليه، كما يقول الشنقيطي -رحمه الله-، فموسى -عليه الصلاة والسلام- ذهب إلى الميقات من أجل مناجاة الله -عز وجل-، ولأجل أن ينزل الله عليه ذلك الكتاب، وهكذا قول من قال: وعدهم أن يسمعهم كلامه على لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم- ليعملوا بما فيه، وهو التوراة، وبعضهم يقول: إن الوعد هو ما تقدم من قوله: **{وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى}**، وواعدهم جانب الطور، وأنزل عليهم المن والسلوى وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، و**{أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا}** قال: أي في انتظار ما وعدكم الله ونسيان ما سلف من نعمه وما بالعهد من قدم، فجمع بين المعنيين **{أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ}**، قال: في انتظار ما وعدكم الله، يعني بأن ينزل عليكم كتاباً مثلاً، وهذا مستلزم لقول من قال -**{أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ}** أي: العهد بي-: إن الله -عز وجل- واعد موسى -عليه الصلاة والسلام- ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر، فكأنهم تباطئوه فعبدوا العجل، فيقول: **{أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ}**، أي: بتنزيل الكتاب، وهكذا قول من يقول: أفطال عليكم العهد بي، أبطأت عليكم، يقول: ونسيان ما سلف من نعمه، **{أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ}** [سورة طه:٨٦-٨٧]، وبعضهم يقول: إن الذين قالوا هذا هم الذين لم يعبدوا العجل؛ لأنه لم يعبد العجل كلُّ الذين كانوا مع هارون

-عليه الصلاة والسلام- وإنما عبده بعضهم، ويقال: إن الذين كانوا مع هارون -عليه الصلاة والسلام- والله تعالى أعلم- كانوا اثني عشر ألفاً، الذين لم يعبدوا العجل، وأن البقية عبدت العجل، وهذا من الأخبار الإسرائيلية، ويختلفون في تقدير عدد بني إسرائيل حينما خرجوا من مصر، ومن أهل العلم من يقول: إن الذين أجابوا بهذا الجواب هم الذين لم يعبدوا العجل، {قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ} وهذا القول وإن كان له وجاهة في بادئ الأمر لكن ما بعده يدل على خلافه، وجه وجاهة هذا القول: أن قوله -تبارك وتعالى- عنهم: {مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا} إن كان صدر من الذين عبدوا العجل هذا جواب بارد، لأنهم لم يذكروا عذراً معتبراً، لكنه إن صدر من الذين لم يعبدوا العجل فإنهم قالوا: {مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا} بمعنى أننا على الطريق وعلى أثرك، ولكن لما نزلت بنا هذه المصيبة وعبد هؤلاء العجل لم نتمكن من مقاتلتهم حتى ترجع، ولم نتمكن من تركهم ونلحق بك لئلا يتفرق جمع بني إسرائيل فأبطأنا {مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا}، لكن قوله بعده: {وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا} يدل على أن الذين قالوا هذا هم الذين عبدوا العجل، وأنهم اعتذروا بهذا العذر البارد، فقوله عنهم: {مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا} قال: أي عن قدرتنا واختيارنا، {مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا}، وقرأ نافع وعاصم بفتح الميم {بِمَلكنا}، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بالكسر {بِملكنا}، والمعنى: أي فأخطأنا، وبعضهم يقول: بملكنا أمورنا، يعني: لم نملك أمرنا، وفي قراءة حمزة والكسائي بالضم {بِمُلكنا}، أي: بسلطاننا، والذي يظهر -والله أعلم- أن هذه القراءات ترجع إلى معنى واحد، فهم يقولون: ما أخلفنا موعدك بإرادتنا وإنما وقع لنا ما لم نتمكن من الخلاص منه -نسأل الله العافية-، ولم نملك أمورنا ومن ثم لم نتمكن من الثبات على الصواب ولزوم الحق والصراط المستقيم، عرضت لهم فتنة فاستزلهم الشيطان وفتنوا بهذا العجل فزاغت قلوبهم وانحرفوا، ووقعوا في هذا الإشراك العظيم، فكأنهم يقولون: لم نطق حمل أنفسنا على الصواب، بمجرد أن رأينا هذا العجل له خوار وقع لنا اضطراب فزلت قدم بعد ثبوتها، هكذا يعتذرون، وهذا عذر سخيف، يقول لهم: لماذا عبدتم هذا العجل؟ فيقولون: والله شيء خارج عن مقدورنا، لم نفعل ذلك بقدرتنا على لزوم الحق، وإنما وقع ذلك بشيء من إقبال النفس، أو بشيء من الفتنة التي حصلت في القلوب فأدت إلى زيغها وضلالها وانحرافها، وهذا من أعجب الأشياء، وكلما يقف الإنسان عند هذه الآية ويتأمل يرجع أحياناً بسؤال كبير وهو أنهم نجاهم الله قبل قليل من فرعون، والبحر انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، ورأوا عدوهم يهلك أمامهم ثم بعد ذلك يعبدون عجلاً، فقد صحبوا موسى -عليه الصلاة والسلام-، ومعهم هارون وحين أراد هارون -عليه الصلاة والسلام- أن يغير عليهم هموا بقتله، واستخفوا به، واستضعفوه، وقالوا: {لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى} [سورة طه:٩١]، فلم يفرقوا بين ربهم -تبارك وتعالى- وبين العجل الذي عبدوه، إذ كيف يكون هذا العجل الذي له خوار هو الرب الخالق المعبود؟ فهذا من أعجب الأشياء، ولو وقع هذا للجيل الثالث أو الرابع أو الخامس لكان معقولاً، لكون العلم قد اندرس لكن الذين مع موسى!، والبدايات عادة يكون فيها من الإقبال وهذه بدايات، وهذا عذرهم، يقول: {وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ} حُمِّلنا، هذه قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وحفص، وقرأ الباقون بالفتح: {وَلَكِنَّا حَمَّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ}، والمقصود بـــ"القوم": الفراعنة، فكانوا قد استعاروا منهم حُلياً، وبعض أهل العلم يقول: إن

هذه الاستعارة كانت فيما مضى من الأيام، فكانت المرأة من بني إسرائيل -وهم يعملون في الخدمة عند الفراعنة- تستعير الحلي في المناسبات، وبقي ذلك الحلي معهم حينما خرجوا سراً؛ لئلا يطلع فرعون على خروجهم، فكان ذلك معهم وأرادوا الخلاص منه، وبعضهم يقول: إن ذلك الحلي كان مما كان يلبسه الفراعنة، فلما غرقوا وألقاهم الماء أخذوا ما معهم، فإن كان ذلك من قبيل الاستعارة، مما استعاروه منهم فإنه لا يحل لهم، فهو لم يحصل لهم بشراء ولا هبة، وإن كان ذلك مما كان يلبسه فرعون ومن معه فإن الغنائم كانت محرمة على بني إسرائيل، فكانت تنزل نار من السماء فتحرقها، فالشاهد أنهم يقولون: {حُمِّلْنَا} وفي القراءة الأخرى: {حَمَّلْنَا أَوْزَارًا} والأوزار هي الأثقال، وبعضهم يقول: المقصود بهذه الأوزار: الأشياء المحرمة عليهم؛ إما لأنها استعيرت، أو لأنها كانت من الغنائم، والغنائم محرمة فأرادوا الخلاص منها، {فَقَذَفْنَاهَا}، وبعضهم يقول: قذفناها: يعني أنهم ألقوها من أجل أن تنزل هذه النار المحرقة، فقذف السامري ما معه من القبضة، {فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ}، وبعضهم يقول: إنهم ألقوها في حفرة؛ لأن هارون أمرهم بهذا حتى يأتي موسى -عليه الصلاة والسلام- ثم ينظر فيها، فقذف عليها السامري هذه القبضة فصارت عجلاً، وبعضهم يقول: إن هارون -عليه الصلاة والسلام- أراد أن يجعلها قطعة واحدة، فأوقد عليها، فجاء السامري وألقى عليها هذه القبضة فصارت عجلاً، فالشاهد أنهم يقولون: {فَقَذَفْنَاهَا} يقول: أي ألقيناها عنا، ألقوها من أجل أن تأتي النار فيتخلصوا منها كما يتخلصون من الغنائم فتحرق، أو ألقوها للسامري لتبقى عنده حتى يرجع موسى -عليه الصلاة والسلام-، يقول: {فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ}، كما ألقيناها نحن فكذلك ألقى السامري، أي: فمثل ذلك القذف ومثل ذلك الإلقاء فعله السامري، ألقى ما معه من القبضة، فهم كأنهم يقولون: فقذفنا هذا الحلي في الحفرة أو في غيرها، وكذلك قذف السامري ما معه، وهذه الأخبار الإسرائيلية نحن لا نصدق بها كما هو معروف ولا نكذبها، فبعضهم يقول: إنه لما رأى حافر فرس الملك جبريل -عليه الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول: رآه حينما كان يتبع الفرس التي كان يركبها فرعون، وهذا غريب؛ لأنهم قد نجوا وصاروا إلى الشق الآخر، فالشاهد أنهم يقولون: أخذ قبضة من أثره، وبعضهم يقول: رآه لما جاء لموسى -عليه الصلاة والسلام- فأخذ قبضة من حافره، وبعضهم يقول: إنه رأى حافر الفرس كلما وقعت على شيء نبت واخضر، فأُلقي في روعه -في قلبه- أنه لا يأخذ ذلك الأثر فيلقيه على شيء فيقول له كن كذا إلا يكون، فالشاهد أن هذا الرجل سيئ أخذ ذلك من أجل أن يعده لأمر ما كهذا، رجل متهيئ مستعد فهو يبيت أمراً مكروهاً، ويقول: {فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ}، نسأل الله العافية، عجلاً جسداً، بعضهم يقول: هو من ذهب وفيه ثقوب يدخل معها الهواء كما يقول ابن عباس -رضي الله عنه- ويخرج من الجهة الأخرى فيصدر صوتاً، وإلا فلا حياة فيه، وبعضهم يقول: إن قوله: {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا} يدل على أنه تحول إلى عجل من لحم ودم فتنة لهم، كما أن الله خلق الإنسان من طين فصار لحماً ودماً، فالله قادر على أن يحول هذا الذهب إلى هذه الصفة من لحم ودم، وهذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ}، ولكن قد يضعف هذا القول ما جاء بعده من قول موسى -عليه الصلاة والسلام-: {وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا} [سورة طه:٩٧]، فيدل على أنه كان من الذهب وأنه لم يتحول إلى مخلوق من لحم ودم، وقال لهم: {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ}

[سورة طه:٨٨]، يقول ابن كثير -رحمه الله-: "**أي ترك ما كان عليه من الإسلام يعني السامري**"، فيكون هذا من كلام الله -عز وجل-، ويكون من الموصول لفظاً المفصول معنى.

والضمير في قوله: {فَنَسِيَ} راجع إلى السامري ويكون هذا من كلام الله -عز وجل-، والنسيان بمعنى الترك، وليس بمعنى الذهول عن المعلوم، فذهاب المعلوم يقال له نسيان، والنسيان يطلق على معنى آخر وهو الترك، {نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ} [سورة التوبة:٦٧]، {نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} [سورة الحشر:١٩]، فيكون من كلام الله -عز وجل- الذي يصف فيه السامري، والمعنى الآخر -وقال به كثير من السلف- هو أن ذلك النسيان يرجع إلى موسى -عليه الصلاة والسلام- ويكون هذا من بقية كلام السامري، قال لهم: هذا إلهكم وإله موسى فنسي، يعني موسى -عليه الصلاة والسلام- نسي أن يذكركم ويقول لكم: هذا ربكم، لكن العجل لم يكن موجوداً، وكثير منهم يقولون: فنسي أي موسى -عليه الصلاة والسلام- فذهب يطلب ربه في مكان آخر، فالرب الذي أنجاهم من آل فرعون وقال له: {فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى} [سورة طه:٧٧]، -وكان العجل وقتئذٍ حلياً معهم- هو العجل، لكن هذا يدل على أنهم بمنتهى البلادة، وقد عبدوا هذا الحيوان الذي يضرب به المثل بالبلادة، فالذي لا يفهم مثلاً يقال له: ثور، فالثور يضرب به المثل في البلادة، والعجل من الثور، فقبل لحظات كان حلياً ثم جعلوه عجلاً ثم يتحول إلى إله ويكذبون على موسى -عليه الصلاة والسلام- ويسيئون الأدب معه ويقولون: هو ذهب يطلب ربه وأخطأه، وهذا هو ربه، يكابرون بهذه المكابرة، وهذا القول قال به كثير من المفسرين، وهو الذي اختاره ابن جرير وابن القيم: أن الذي نسي هو موسى -عليه الصلاة والسلام-، ولهذا قال الله لهم: {أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا}، وهذا يدل على شدة علوق النفوس بهذه الأمور، ولهذا قطعت الشريعة كل أسباب الإشراك، فجاء النهي عن الصلاة في المقابر أو إلى القبور، وكذلك البناء على القبور، وتحريم التصاوير، فالنفوس في هذه الأشياء قد تفتن فتنة عظيمة، ويحصل لها مثل ما حصل لهؤلاء الناس، وهنا قال: {فَنَسِيَ * أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا}.

{وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىَ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىَ} [سورة طه:٩٠-٩١]، **يخبر تعالى عما كان من نهي هارون -عليه السلام- لهم عن عبادتهم العجل وإخباره إياهم: إنما هذا فتنة لكم، وإن ربكم الرحمن الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد الفعال لما يريد، {فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوَاْ أَمْرِي}، أي: فيما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه، {قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىَ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىَ}، أي: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه، وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه، وكادوا أن يقتلوه.**

{قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلّوْاْ * أَلاّ تَتّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَابْنَ أُمّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرّقْتَ بَيْنَ بَنِيَ إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} [سورة طه:٩٢-٩٤]، **يخبر تعالى عن موسى -عليه السلام- حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم فامتلأ عند ذلك غضباً وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وقد قدمنا في سورة الأعراف بسط**

ذلك، وذكرنا هناك حديث: ((ليس الخبر كالمعاينة))[1]، وشرع يلوم أخاه هارون، فقال: {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلّوَاْ أَلاّ تَتّبِعَنِ}، أي: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع، {أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي}، أي: فيما كنت قدّمتُ إليك، وهو قوله: {اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [سورة الأعراف:١٤٢]، {قَالَ يَابْنَ أُمّ}، ترفق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف، ولهذا قال: {يَابْنَ أُمّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي} الآية، هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم، قال: {إِنّي خَشِيتُ} أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم {وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}، أي: وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: وكان هارون هائباً مطيعاً له.

في قوله: {قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلّوَاْ * أَلاّ تَتّبِعَنِ}، الاتباع يحتمل أن يكون المراد به الاتباع حساً، ويحتمل أن يكون المراد به الاتباع معنى، أما الاتباع حساً فهو أن يفارقهم ويلحق موسى -عليه الصلاة والسلام-، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، ويكون على هذا الاعتذار الذي تقدم به هارون -عليه الصلاة والسلام- حينما قال: {إِنّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} فرقت بينهم بمعنى أنك أتيت بطائفة وبقيت طائفة في مكان آخر، وأما إذا كان هذا الاتباع المقصود به أن يتبعه معنًى وذلك بأن يتبع سبيله ويكون هذا في الإنكار عليهم أو في مقاتلتهم والتغيير على هؤلاء الذين عبدوا العجل، {أَلاّ تَتّبِعَنِ}، قال: {أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} هو حينما أمره قال له: {اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [سورة الأعراف:١٤٢]، فإذا قيل الاتباع المقصود به الاتباع معنًى {وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} فيكون من الإصلاح أن يغيّر على هؤلاء، فكيف تركهم يعبدون العجل؟ وإذا كان الاتباع المقصود به الاتباع حساً بأن يفارقهم ويلحق بموسى -عليه الصلاة والسلام- فهو يقول له: {اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ} فإذا فرقهم وجاء مع طائفة وترك طائفة فإنه يكون بذلك قد خالف أمره في ظاهر الحال، يحتمل هذا ويحتمل هذا، والله تعالى أعلم، والحاصل أن موسى -عليه الصلاة والسلام- هنا يقول: {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلّوَاْ * أَلاّ تَتّبِعَنِ}، أي: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع، {أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي}، أي: فيما كنت قدّمتُ إليك، فالحاصل أنه قال له: {يَابْنَ أُمّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي}، هو شقيقه فقال له: {يَابْنَ أُمّ}؛ لأن المخاطبة بذلك، وذكْر الوشيجة بالأم أدعى إلى الحنو والرأفة والرقة، {لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي}، هنا فيه كلام محذوف معلوم من السياق وهو أن موسى -عليه الصلاة والسلام- أخذ برأسه ولحيته كما قال الله -عز وجل-: {وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ} [سورة الأعراف:١٥٠]، فهارون -عليه الصلاة والسلام- عندها قال له: {يَابْنَ أُمّ} يستعطفه، {لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} فإذا جاء ببعضهم وترك البعض، أو إذا جاء وقاتلهم؛ لأنه أنكر عليهم وغيّر فاستضعفوه وكادوا أن يقتلوه، فالشاهد أن هارون -عليه الصلاة والسلام- قال له هذا، وقال له: {فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ} فيتندروا بي ويستهزئوا، وهذا يدل

---

١ - رواه الإمام أحمد في المسند برقم (١٨٤٢)، وقال محققوه: حديث صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-، والحاكم في المستدرك برقم (٣٢٥٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٩٥٠٤).

على أن هؤلاء الذين جاءوا ونجاهم الله من الغرق فيهم أعداء لهارون -عليه الصلاة والسلام-، وفيهم أهل إفساد كما قال: {وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [سورة الأعراف:١٤٢]، فهؤلاء الجمع الذين نجوا وصحبوا موسى -عليه الصلاة والسلام- وهارون فيهم مثل هؤلاء الأشرار، وهم الجيل الأول والصفوة، والذين شاهدوا هذه الآية العجيبة وباقي الآيات العصا ونزول المن والسلوى عليهم، وحصل لهم الاجتباء والاصطفاء ومع ذلك كانوا بهذه المثابة، فالبقية ماذا يقال عنهم الآن؟ ماذا يقال عن هؤلاء الذين في زماننا هذا؟ قل ما شئت من الشر والفساد والإفساد محادّة لله -تبارك وتعالى-، يقول: {وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}، يقول: أي وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم، قال ابن عباس: وكان هارون هائباً مطيعاً له، وبعضهم يقول: {وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} يعني لم تنتظر قدومي حتى أقرر، إذا أتيت أقرر شيئاً أو ما أراه، ولكن هذا فيه بعد والأقرب هو ما سبق، {وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} يعني فيما أمرتك به؛ لأنه إذا جاء، {إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي}، فيقول: {إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}، يعني: لم تنتظر حتى آتي ثم بعد ذلك أقرر شيئاً، لماذا استعجلت وأتيت مثلاً، انتظر حتى أرجع وعند ذلك أتخذ قراراً، هذا معنى آخر، والمشهور هو الأول {وَلَمْ تَرْقُبْ} يعني حيث أمرتك بالإصلاح وما سبق، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مّنْ أَثَرِ الرّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنّ لَكَ مَوْعِداً لّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىَ إِلَـهِكَ الّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لّنُحَرّقَنّهُ ثُمّ لَنَنسِفَنّهُ فِي الْيَمّ نَسْفاً * إِنّمَا إِلَـهُكُمُ اللّهُ الّذِي لا إِلَـهَ إِلاّ هُوَ وَسِعَ كُلّ شَيْءٍ عِلْماً} [سورة طه:٩٥-٩٨]، يقول موسى -عليه السلام- للسامري: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟ روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: كان السامري رجلاً من أهل باجَرْما، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حُبُّ عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل، وكان اسمه موسى بن ظفر، وقال قتادة: كان من قرية سامراء، {قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ}، أي: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مّنْ أَثَرِ الرّسُولِ}، أي: من أثر فرسه، وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم.

وقال مجاهد: {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مّنْ أَثَرِ الرّسُولِ} قال: من تحت حافر فرس جبريل، قال: والقبضة ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع.

القبضة ليست بأطراف الأصابع، وإنما تكون بملء الكف، والقبصة –بالصاد- بأطراف الأصابع، وجاء في قراءة غير متواترة "قبصة".

قال مجاهد: نبذ السامري، أي: ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل فانسبك عجلاً جسداً له خوار حفيف الريح فيه، فهو خوراه، ولهذا قال {فَنَبَذْتُهَا}، أي: ألقيتها مع من ألقى {وَكَذَلِكَ سَوّلَتْ لِي نَفْسِي}، أي: حسّنَتْه وأعجبها إذا ذاك.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- عن السامري: "**كان اسمه موسى بن ظفر، قال قتادة: كان من قرية سامراء**" إلى آخره: كل هذا متلقى عن بني إسرائيل ولا يثبت فيه شيء، وفيه أقوال غير هذا متعددة، ومثل هذا لا يترتب عليه أثر، ولا يبنى عليه عمل، والبحث عنه غير مجدي، {قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ}، قال: أي رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون، فسرها هنا {بَصُرْتُ} بمعنى رأيت، من الرؤية البصرية بالبصر، وتحتمل معنًى آخر {بَصُرْتُ}، أي: علمت، تقول: فلان له بصر في كذا، فلان أبصر كذا، فيمكن أن يكون بمعنى علم، وتقول: تبصرت في كذا، ولهذا حمله ابن جرير -رحمه الله- على معنى علمت، {بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ} بمعنى علمت ما لم يعلموا، بعض أهل العلم يقول: إنه عرف ذلك، أُلقي في نفسه -ألقي في روعه-، بعضهم يقول: إنه لما رأى الأرض تنبت تحت حافر الفرس وقع في نفسه أنه لا يُلقي ذلك على

شيء إلا وجدت فيه الحياة، أو أنه يقول له: كن كذا، فيكون، والشاهد أنه عرف شيئاً لم يعرفه الآخرون، وسواء كانت من الرؤية البصرية، أو من رؤية القلب والعلم فإنه حينما رأى فرس جبريل ببصره عرف من ذلك أنه يستطيع بهذا الفعل أن يحقق أمراً كهذا، يقول: {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مّنْ أَثَرِ الرّسُولِ} قال: "**من تحت حافر فرس جبريل**"، وهذا تدل عليه قراءة ابن مسعود -وهي قراءة غير متواترة-: {فقبضت قبضة من أثر فرس الرسول}، وفي القراءة الأخرى {**فقبصت**} والقبصة هي الأخذ بأطراف الأصابع، قال: **والقبضة ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع**، الذي يظهر أنها: والقبصة بأطراف الأصابع، "**قال مجاهد: نبذ السامري، أي: ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل فانسبك عجلاً جسداً له خوار حفيف الريح**"، وهذا قول ابن عباس -رضي الله عنهما-: أنه لم يكن فيه حياة ولم يكن يصدر منه صوت إلا أن الريح كانت إذا دخلت فيه ظهر هذا الحفيف وهو صوت الرياح فقط، والخوار هو صوت البقر، ويبقى النظر هل صوت دخول الرياح يكون بهذه المثابة خواراً؟ قد يكون فيه ثقوب تؤدي إلى هذا، والله أعلم، وذكر بعضهم أن هذا العجل كان من لحم ودم، عجل حقيقي، يقول: "{فَنَبَذْتُهَا}، **أي: ألقيتها مع من ألقى**، {وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي}".

{قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ}، **أي: كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول فعقوبتك في الدنيا أن تقول لا مساس، أي لا تماسّ الناس ولا يمسونك**، {وَإِنّ لَكَ مَوْعِداً}، **أي: يوم القيامة**، {لّن تُخْلَفَهُ}، **أي: لا محيد لك عنه، وقال قتادة** {أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ} **قال: عقوبة لهم، وبقاياهم اليوم يقولون: لا مساس.**

قوله: {أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ}، قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**أي لا تماس الناس ولا يمسونك**"، يعني: لا يمس الناس ولا يمسونه، فإذا مس أحداً أو مسه أحدٌ حُمَّ، كان يصاب بالحمى، ويتأذى بذلك، فإذا أراد أحد أن يقترب منه قال له: لا مساس، لا تمسني من أجل أن لا أُصاب بالحمى، هكذا قال بعضهم، وبعضهم قال غير هذا، والشاهد أن منهم من يقول: إن ذلك بمعنى أنه لا يختلط بالناس، ولا يجلس معهم، بمعنى أنه يُهجر، فهُجر، فصار لا يجلس معه أحد، لكن المس غير الهجر، فالذي يظهر -والله أعلم- أنها عقوبة حلت به فصار يقول: لا مساس؛ لأنه لا يطيق ذلك لسبب أو لآخر، -والله أعلم-، وبعضهم فسر المساس هنا: بمعنى أنه لا يطيق الجماع، {مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ} [سورة البقرة:٢٣٧] يعني أن تجامعوهن، وهذا بعيد، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَإِنّ لَكَ مَوْعِداً لّن تُخْلَفَهُ} **قال الحسن وقتادة وأبو نهيك: لن تغيب عنه، وقوله**: {وَانظُرْ إِلَىَ إِلَـهِكَ}، **أي: معبودك**، {الّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً}، **أي: أقمت على عبادته، يعني العجل.**

يعني: أن عقوبته في الدنيا أن يقول: لا مساس، وله عقوبة أخروية لن تتخلف، يقال كما قال الله -عز وجل-: {وَإِنّ لَكَ مَوْعِداً لّن تُخْلَفَهُ}، يعني: أن ذلك واقع بك لا مناص ولا محيد من الوقوع فيه، وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَانظُرْ إِلَى إِلَـهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا}، هو ليس بإله، ولكنه سماه إلهاً بحسب نظر المخاطب، فهو قال: إنه إله، فخاطبه بما يعتقد أو بما يزعم، {وَانظُرْ إِلَى إِلَـهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا}، قال: "**أي أقمت على عبادته، يعني: العجل**".

{لّنُحَرّقَنّهُ} **قال الضحاك عن ابن عباس والسدي: سَحَله بالمبارد وألقاه على النار، وقال قتادة: استحال العجل من الذهب لحماً ودماً، فحرقه بالنار، ثم ألقى أي: رماده في البحر، ولهذا قال:** {ثُمّ لَنَنسِفَنّهُ فِي الْيَمّ

نَسْفاً}، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عمارة بن عبد وأبي عبد الرحمن عن علي -رضي الله عنه- قال: إن موسى لما تعجل إلى ربه عمد السامري فجمع ما قدر عليه من حلي نساء بني إسرائيل، ثم صوره عجلاً، قال: فعمد موسى إلى العجل، فوضع عليه المبارد فبرّده بها وهو على شط نهر فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب، فقالوا لموسى: ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضاً، وهكذا قال السدي، وقد تقدم في تفسير سورة البقرة، ثم في حديث الفتون بسطُ ذلك.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا}، العكوف هو المكث الطويل، ملازمة الشيء، {لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا}، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا} [سورة طه:١٠٥]، أصل النسف هو نفض الشيء لتذروه الريح، ومنه المنسف.

فالشاهد أن معنى {لَنَنسِفَنَّهُ} هكذا فسرها طائفة من أهل العلم، ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله-: بمعنى لنذرينّه في البحر تذرية، يذرى العجل الذي من الذهب في البحر ببرده بالمبارد، ولهذا يقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: "**سحَله بالمبارد وألقاه على النار**" فابتداءً يبرد ثم يحرق، إن صح ذلك عنه، ومهما يكن من أمر فإن قوله: {لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ} إذا قلنا بأن النسف هو التذرية في الرياح فإن ذلك لا يكون إلا بعد تبريده، لأنه لا يكون إلا للشيء المفتت، وهذا يدل على أنه من ذهب وليس من لحم ودم، فهذا المعنى على قول من قال بأنه برده بالمبارد، وأما إذا كان من لحم ودم فإنه يكون رماداً إذا أحرق، وحديث البخاري: ((إذا مت فأحرقوني))[1]، الشاهد أن هذه التذرية في الريح لابد أن يسبقها شيء آخر غير الإحراق وهو أن يبرد بالمبارد بحيث يتفتت ثم بعد ذلك يطير في الهواء {لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا}.

وقوله تعالى: {إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً} يقول لهم موسى -عليه السلام-: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه عبدٌ له، وقوله: {وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً} نصب على التمييز، أي: هو عالم بكل شيء، {أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً}، و{وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً}.

هذا تمييز محول عن الفاعل، {وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً} يعني: وسع علمه.

فـ {لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ} [سورة سبأ:٣]، {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [سورة الأنعام:٥٩]، {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [سورة هود:٦]، **والآيات في هذا كثيرة جداً.**

{كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً * مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً} [سورة طه:٩٩-١٠١]، **يقول تعالى لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: كما قصصنا عليك خبر موسى وما جرى له مع فرعونَ وجنوده على الجلية والأمر الواقع، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا {وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا}، أي: من**

---

١ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} [سورة الفتح:١٥]، برقم (٧٠٦٩)، من حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه.

عندنا ذكراً، وهو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه، تنزيل من حكيم حميد، الذي لم يُعطَ نبيٌّ من الأنبياء منذ بعثوا إلى أن ختموا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- كتاباً مثله، ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكم الفصل بين الناس منه.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً} القرآن سماه الله بهذا، لأنه متضمن للتذكير والمواعظ وما يحتاجون إليه فيما يكون به صلاحهم في الدنيا وفي الآخرة، كذا قال بعضهم، وبعضهم يقول: قيل له ذكر؛ لأنه يذكر آلاء الله ونعمه على عباده، فهو متضمن لهذه الأمور، وبعضهم يذهب في المعنى إلى غير هذا: أنه ذِكْر: بمعنى شرف للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولأمته كما فسر بعضهم قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} [سورة الزخرف:٤٤] وبعضهم قال: هذا من التذكير، يحصل به التذكر والاتعاظ والاعتبار، وبعضهم يقول: وإنه لذكر لك، أي: شرف لك، وشرف لقومك أن نزل هذا الكتاب الخاتم العظيم بلسان عربي مبين، وقوله: {وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً}، القرآن قيل له ذكر؛ لما تضمنه من التذكير بنعم الله -عز وجل-، والتذكير بما فيه من المواعظ والعبر، وقص الله فيه أخبار الأمم وما جرى للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مع أقوامهم، وذكّر الله -عز وجل- فيه بثوابه وعقابه، وبجنته وناره، إلى غير ذلك مما تضمنه هذا القرآن، والله أعلم.

ولهذا قال تعالى: {مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ}، أي: كذب به وأعرض عن اتباعه أمراً وطلباً، وابتغى الهدى من غيره فإن الله يضله ويهديه إلى سواء الجحيم، ولهذا قال: {مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً}، أي: إثماً، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [سورة هود:١٧] وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم، كما قال: {لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [سورة الأنعام:١٩] فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداعٍ، فمن اتبعه هُدي ومن خالفه وأعرض عنه ضل وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة، ولهذا قال: {مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً خَالِدِينَ فِيهِ}، أي: لا محيد لهم عنه ولا انفكاك، {وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً}، أي: بأس الحمل حملهم.

الوزر: هو الحمل، وأصل معناه الحمل الثقيل، ويطلق الوزر على الإثم تقول: فلان يحمل وزر فلان؛ لأنه أضلّه مثلاً، بمعنى أنه يحمل إثماً بسبب ذلك، كما أن الوزر يطلق على نتيجة الإثم وما ينتج عنه، فإن الذي يحمل الأوزار والآثام يعاقب عليها ما لم يحصل مانع يمنع من العقوبة من مغفرة، أو شفاعة، أو ذنوب مكفرة، أو حسنات ماحية، أو غير ذلك من الموانع، فهذه الذنوب والآثام المترتبة على الذنوب تكون أثقالاً يحملونها، كما عبر الله عن ذلك في موضع آخر، {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ} [سورة العنكبوت:١٣] فهذه الأثقال هي الأوزار، فالوزر لا يكون للحمل الخفيف وإنما يكون للحمل الثقيل فهو يثقل حامله، وقوله: {خَالِدِينَ فِيهِ} يعني في الوزر، وقيل: في هذا العذاب والعقاب، {وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا} يعني: هذا الوزر، وسماه حملاً.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: "ومن تلاعبه بهم عبادتهم العجل من دون الله تعالى، وقد شاهدوا ما حل بالمشركين من العقوبة والأخذة الرابية، ونبيهم حي لم يمت، هذا وقد شاهدوا صانعه يصنعه ويصوغه ويصليه النار، ويدقه بالمطرقة، ويسطو عليه بالمبرد، ويقلبه بيديه ظهراً لبطن، ومن عجيب أمرهم أنهم لم

يكتفوا بكونه إلههم، حتى جعلوه إله موسى، فنسبوا موسى -عليه السلام- إلى الشرك وعبادة غير الله تعالى، بل عبادة أبلد الحيوانات وأقلها دفعاً عن نفسه، بحيث يضرب به المثل في البلادة والذل، فجعلوه إله كليم الرحمن، ثم لم يكتفوا بذلك حتى جعلوا موسى -عليه السلام- ضالاً مخطئاً، فقالوا: فنسي، قال ابن عباس: أي ضل وأخطأ الطريق، وفي رواية عنه: أي أن موسى ذهب يطلب ربه فضل ولم يعلم مكانه.

وعنه أيضاً: نسي أن يذكر لكم أن هذا إلهه وإلهكم، وقال السدي: أي ترك موسى إلهه هاهنا وذهب يطلبه، وقال قتادة: أي أن موسى إنما يطلب هذا، ولكنه نسيه وخالفه في طريق آخر، هذا هو القول المشهور، أن قوله: فنسي: من كلام السامري وعباد العجل معه.

وعن ابن عباس رواية أخرى أن هذا من إخبار الله تعالى عن السامري أنه نسي، أي ترك ما كان عليه من الإيمان، والصحيح القول الأول، والسياق يدل عليه، ولم يذكر البخاري في التفسير غيره.

فقال: فنسي موساهم، يقولون: أخطأ الربَّ، فإنه لما جعله إله موسى استحضر سؤالاً من بني إسرائيل يوردونه عليه فيقولون له: إذا كان هذا إله موسى فلأي شيء ذهب عنه لموعد إلهه؟، فأجاب عن هذا السؤال قبل إيراده عليه بقوله: {فَنَسِيَ}، وهذا من أقبح تلاعب الشيطان بهم، فانظر إلى هؤلاء كيف اتخذوا إلهاً مصنوعاً من جوهر أرضي، إنما يكون تحت التراب محتاجاً إلى سبك بالنار وتصفية وتخليص لخبثه منه، مدقوقاً بمطارق الحديد مقلباً في النار مرة بعد مرة، قد نحت بالمبارد وأحدث الصانع صورته وشكله على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل والضيم، وجعلوه إله موسى، ونسبوه إلى الضلال حيث ذهب يطلب إلهاً غيره.

قال محمد بن جرير: وكان سبب اتخاذهم العجب ما حدثني به عبد الكريم بن الهيثم، قال: حدثني إبراهيم بن بشار الرمادي حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-ما قال: لما هجم فرعون على البحر -هو وأصحابه- وكان فرعون على فرس أدهم، فلما هجم فرعون على البحر هاب الحصان أن يقتحم في البحر، فمثل له جبريل –عليه السلام- على فرس أنثى، فلما رآها الحصان تقحم خلفها، قال: وعرف السامري جبريل، فقبض قبضة من أثر فرسه، قال: فأخذ قبضة من تحت الحافر، قال سفيان: وكان ابن مسعود يقرؤها: {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ فَرَسِ الرَّسُولِ}، قال أبو سعيد: قال عكرمة عن ابن عباس: وأُلقي في رُوع السامري: إنك لا تلقيها على شيء فتقول: كن كذا وكذا إلا كان، فلم تزل القبضة معه -في يده- حتى جاوز البحر، فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر وأغرق الله آل فرعون قال موسى لأخيه هارون: {اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ} [سورة الأعراف:١٤٢]، ومضى موسى لموعد ربه، قال: وكان مع بني إسرائيل حلية من حليّ آل فرعون قد استعاروه فكأنهم تأثموا منه، فأخرجوه لتنزل النار فتأكله، فلما جمعوه قال السامري بالقبضة التي كانت في يده هكذا، فقذفها فيه وقال: كن عجلاً جسداً له خوار، فصار عجلاً جسداً له خوار، فكان يدخل الريح من دبره ويخرج من فيه يسمع له صوت، فقال: هذا إلهكم وإله موسى، فعكفوا على العجل يعبدونه فقال هارون: {يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى} [سورة طه:٩٠-٩١]، وقال السدي: لما أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل من أرض مصر أمر موسى بني إسرائيل أن يخرجوا، وأمرهم أن يستعيروا

الحليّ من القبط، فلما نجّى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل من البحر وأغرق آل فرعون أتى جبريل إلى موسى ليذهب به إلى الله، فأقبل على فرس، فرآه السامري فأنكره -ويقال: إنه فرس الحياة- فقال حين رآه: إن لهذا لشأناً، فأخذ من تربة حافر الفرس، فانطلق موسى -عليه السلام- واستخلف هارون على بني إسرئيل[٢]".

هذه الأشياء متلقاة من بني إسرائيل، فالله تعالى أعلم.

{يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} [سورة طه:١٠٢-١٠٤]، **ثبت في الحديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سئل عن الصور فقال: ((قرن ينفخ فيه))، وقد جاء في حديث الصور من رواية أبي هريرة أنه قرن عظيم، الدائرة منه بقدر السماوات والأرض، ينفخ فيه إسرافيل -عليه السلام-، وجاء في الحديث: ((كيف أنعمُ وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنا جبهته، وانتظر أن يؤذن له))، فقالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال: ((قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا))**[٣].

قوله -تبارك وتعالى-: {يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ} يحتمل أن يكون ذلك مرتبطاً بما قبله، بمعنى أن الله قال: {مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا * يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ} ساء لهم يوم القيامة حملاً حين ينفخ في الصور، {وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا}، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله.

والقول بأنه مستأنف قد يكون أولى -والله تعالى أعلم-، وفي مثل قوله: {يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ}، عادة يكون التقدير: واذكر يوم ينفخ في الصور.

وقوله: {وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا}، قيل: معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال، {يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ} قال ابن عباس: يتاسرُّون بينهم.

قوله: {وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا} قال: معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال، وبعضهم فسره بالعطاش، كالأزهري والزجَّاج، {وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا} أي: عطاشاً، وعلاقة هذا بـــ "زرقاً": أن شدة العطش يتسبب عنها تغير في لون العين إلى الزرقة، فقالوا: إن هذا عبر فيه بالنتيجة {وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا} وسبب هذه الزرقة هو العطش الشديد، فيكون هذا من قبيل التفسير بالمطابق؛ لأنهم يقرون أن العين تتغير إلى لون الزرقة، لكنهم ذكروا سبب زرقة هذه العيون وهو شدة العطش، وتفسير ابن كثير -رحمه الله- يقول: "**زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال**"، وكثير من أهل العلم يفسرونها بزرقة العيون، سواء كان ذلك بسبب العطش، أو كان من شدة الأهوال، أو غير ذلك، علامة فارقة يُعرفون بها، والعرب تقول لمن كانت عينه خضراء: أزرق، أصحاب العيون الرزق أو الخضر، يقال للرجل: أزرق،

---

٢ - انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم الجوزيه (٢/٣٠٠-٣٠٢).

٣ - رواه أحمد في المسند برقم (٣٠٠٨)، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-، وقال محققوه: حسن لغيره.

كما في الحديث: ((يطلع عليكم رجل ينظر بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلموه))[٤]، فجاء رجل أو طلع رجل أزرق، يعني أزرق العينين، ويعتقدون أن زرقة العين تدل على الغدر وهو شيء مكروه عندهم، لكن هذا ليس بلازم، فهذا خلق الله -عز وجل-، ومن هؤلاء من يوجد فيه غدر، ومنهم من لا يوجد فيه غدر، كما أن سواد العين ليس بلازم أن يكون صاحبه سالماً من هذه الأوصاف، فقد توجد وقد لا توجد، وبعضهم فسر الزرقة في قوله: {وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا} قال: أي عمياً، وهؤلاء يستندون إلى بعض ما جاء عن العرب في التعبير، وهذا القول قال به الفراء، فالعرب لربما قالوا للأعمى: أزرق، يعني: أعمى، ولكنه خلاف الظاهر المتبادر، وكأن هذا القائل قال بذلك ليجمع بين الآيات ويخرج من الإشكال، فإن الله -تبارك وتعالى- قال عن المجرمين: {وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا}، ولهذا سئل ابن عباس عن: يحشرون عمياً، وهنا قال: يحشرون زرقاً، فعلى قول الفراء لا منافاة "زرقاً" بمعنى "عمياً": فتفسر هذه الأخرى، وعلى قول الجمهور -كما قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: لأن يوم القيامة يوم طويل فيحصل لهم هذا وهذا، والله أعلم.

{يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ} قال ابن عباس: يتسارُّون بينهم، أي يقول بعضهم لبعض: {إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا} أي: في الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلاً، عشرة أيام أو نحوها.

قال بعض أهل العلم: إنهم قصدوا أن المدة التي بقوا في القبور كانت مدة يسيرة، وبعضهم يقول: إن المقصود ما بين النفختين، وهذا أبعد هذه الأقوال، ولعل الأقرب أن المقصود بذلك الدنيا، أن مدة المكث في الدنيا كانت قصيرة، -والله أعلم-، وقول من قال: إن ذلك كان في القبور مبني على أن المكث في القبور وبقاء الإنسان الميت -كما يقال في النائم- يقصر عليه، يعني هؤلاء الذين ماتوا من ألف سنة أو من ألفي سنة هي بالنسبة إليهم ليست مثل الأحياء طويلة جداً، فمن يريد أن يقصِّر الأوقات ويختصر يومه ينام، فربما ينام يوماً وليلة كاملة ويستيقظ ويظن أنه ما نام إلا خمس دقائق، وهذا يحصل للإنسان وهو شيء مجرب، فلو أن شخصاً ابتلي ببعض أنواع المرض التي تسبب له النوم الكثير، فإذا نام واستيقظ في مثل هذا الوقت من الغد لربما ينظر فيظن أنه نام في الصباح والآن هو في الضحى أو العصر، نام ساعة أو قريباً منها فقط، يتعجب أنه ما نام أصلاً، والمقصود بذلك والأقرب: أنهم قصدوا: في الدنيا، والله أعلم.

قال الله تعالى: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ} أي: في حال تناجيهم بينهم، {إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً} أي: العاقل الكامل فيهم {إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} أي: لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد؛ لأن الدنيا كلها -وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها- كأنها يوم واحد، ولهذا يستقصر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة، وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة، ولهذا قال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ} إلى قوله: {وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [سورة الروم:٥٥-٥٦]، وقال تعالى: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ} [سورة فاطر:٣٧] الآية، وقال تعالى: {كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ * قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ

---

٤ - رواه أحمد في المسند برقم (٢١٤٧)، وقال محققوه: إسناده حسن، والطبراني في المعجم الكبير برقم (١٢٣٠٧)، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما.

تَعْلَمُونَ} [سورة المؤمنون:١١٢-١١٤] **أي: إنما كان لبثكم فيها قليلاً، لو كنتم تعلمون لآثرتم الباقي على الفاني، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف، قدمتم الحاضر الفاني على الدائم الباقي.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لاَّ تَرَىَ فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً} [سورة طه:١٠٥-١٠٨].

يقول تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ}، أي: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ {فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً}، أي: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً، {فَيَذَرُهَا}، أي: الأرض، {قَاعاً صَفْصَفاً} أي: بساطاً واحداً، والقاع هو المستوي من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل الذي لا نبات فيه، والأول أولى وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم، ولهذا قال: {لاَّ تَرَىَ فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً}، أي: لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابية، ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن البصري والضحاك وقتادة وغير واحد من السلف.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً}، أي: ويسألونك على الجبال في ذلك اليوم في يوم القيامة ما شأنها؟ وما مصيرها؟ {فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً}، يقول: {يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً}، أي: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييرا، والنسف يأتي بمعنى التذرية، قال بهذا كثير من أهل العلم ومنهم كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، بمعنى أن الجبال تتفتت حتى تصير {هَبَاء مُّنبَثًّا} [سورة الواقعة:٦]، والهباء ما تعرفون مما يشاهد من الكوة أو النافذة إذا دخلت الشمس مما يتطاير في الهواء، فالله تعالى أخبر عن حال الجبال؛ لأنها تكون كالعهن المنفوش، وكالهباء، فهي تتفتت ويذريها الله -عز وجل- تذرية فتقلع من أماكنها وتستأصل من أصولها وتدك وتصير إلى تلك الحال، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً} فيذرها الضمير يرجع إلى الأرض، أو يرجع إلى الجبال باعتبار أنها هي المذكورة قبله ولا ذكر للأرض، وبعضهم يقول: {فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً} يرجع إلى المذكور قبله وهو الجبال، {فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً} يعني أنه إذا قلعها من أماكنها وسيرت هذه الجبال بقيت منابتها وأصولها وأماكنها قاعاً صفصفا، وبعضهم يقول: {فَيَذَرُهَا}، أي: الأرض، والضمير عائد إلى غير مذكور، يفهم من السياق ولا بأس أن يعود الضمير إلى غير المذكور مما يعرف من السياق ثقة بفهم السامع كقوله -تبارك وتعالى-: {مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ} [سورة فاطر:٤٥]، يعني: الأرض، مع أن الأرض لم يرد لها ذكر قبل ذلك، وهكذا في قوله: {مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ}[سورة النحل:٦١]، وكقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [سورة القدر:١]، يعني: القرآن، ولم يرد للقرآن ذكر قبل هذا؛ لأنها الآية الأولى، وقوله -تبارك وتعالى-:

{فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً} يقول الحافظ -رحمه الله-: "**أي بساطاً واحداً، والقاع هو المستوي من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى ذلك**"، ومعلوم أن التأسيس مقدم على التوكيد، ولهذا فإن الكثيرين من أهل العلم يقولون بأن الصفصف ليس معناه القاع، يقول: وقيل الذي لا نبات فيه، يعني: {فَيَذَرُهَا قَاعاً} يعني: مستوية لا نبات فيها، {صَفْصَفاً}، أي: لا نبات فيها، مع أن ابن كثير -رحمه الله- رجح الأول قال: "**وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم**"، لأنها إذا كانت مستوية فمعنى ذلك أنك لا ترى فيها شيئاً مرتفعاً لا نباتاً، ولا جماداً، فيلزم منه القول بأنه لا نبات فيها، فالقولان متلازمان، وقوله: {فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لاَّ تَرَىَ فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً}، يقول هنا: "**لا ترى في الأرض يومئذ والياً ولا رابية**"، بمعنى أن العوج هو الوادي، يعني العوج هو المكان المنخفض، والأمْت هو المكان المرتفع ارتفاعاً يسيراً، ولهذا ما قال: جبلاً، يقول: "**ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد إلى آخره**"، وبعضهم يقول كابن الأعرابي: العوج من التعوج، بمعنى أنك في الأرض تجد فيها ما تجد من البحر الذي يحد اليابسة، كما تجد فيها المسالك حينما يمشي الإنسان فيها ما يميل معه في طريقه، لأسباب معروفة، من تضاريس الأرض، أما الأرض التي تكون آنذاك فإنها في غاية الاستواء لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا، فالأمت هي التلال الصغار كما يفسرها بذلك ابن الأعرابي -رحمه الله-، وكلام أهل العلم كثير في معنى قوله -تبارك وتعالى-: {لاَّ تَرَىَ فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً}، لكن ذلك يرجع إلى معنى أنها في غاية الاستواء، فلا ترى فيها تبايناً من ارتفاع أو انخفاض أياً كان سبب ذلك، بعض هذه التفاسير هي من قبيل التفسير باللازم، وبعضهم يشير إلى معنى وهو: أن هذا الاستواء يكون في غاية الدقة {لاَّ تَرَىَ فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً}، بعضهم يفرق بين العِوج بالكسر والعَوج بالفتح، يقولون: العِوج يكون في النظر والرأي والمعاني، وأما العَوج فيكون في الأشياء المحسوسة، وهنا قال: {لاَّ تَرَىَ فِيهَا عِوَجاً}، وأجابوا عن هذا فقالوا: إن الإنسان حينما يسوي الأرض قد تبدو للنظر أنها مستوية ولكن عند القياس وفي نظر أهل المساحة أو الهندسة يوجد فيها بعض الميل أو الانخفاض أو الارتفاع أو نحو ذلك مما لا يبدو للنظر، فيخطئ النظر حيث يظن أنها مستوية وليست كذلك، فعُبر بالعِوج {لاَّ تَرَىَ فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً}، هكذا قال بعضهم.

والمقصود -والله تعالى أعلم- أن الأرض تكون في غاية الاستواء.

{يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ}، أي: **يوم يرون هذه الأحوال والأهوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيثما أُمروا بادروا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم ولكن حيث لا ينفعهم، كما قال تعالى**: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [مريم: ٣٨]، **وقال**: {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ}[القمر: ٨].

{يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ}، يعني: الذي يدعوهم بعد خروجهم من قبورهم فينفخ في الصور، {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ}، يقول هنا: "**أي يوم يرون هذه الأهوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيثما أمروا بادروا إليه**"، بمعنى أنهم يكونون في غاية الإقبال، والاستجابة كما قال الله تعالى: {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ}، {لاَ عِوَجَ لَهُ} بمعنى أنهم لا معدل لهم عن دعائه فلا يقدرون على أن يزيغوا عنه أو ينحرفوا منه، يتبعون الداعي لا عوج له، وإنما هم في غاية الإقبال عليه والاستجابة.

قال الشنقيطي -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً}: "أي: لا اعوجاج فيها ولا أمت، والأمت: النتوء اليسير، أي: ليس فيها اعوجاج ولا ارتفاع بعضها على بعض، بل هي مستوية، ومن إطلاق الأمت بالمعنى المذكور قول لبيد:

فاجرمَّزت ثم سارت وهي لاهية *** في كافر ما به أمت ولا شرف

وقول الآخر:

فأبصرت لمحة من رأس عكرشة *** في كافر ما به أمت ولا عوج

والكافر في البيتين: قيل الليل، وقيل المطر؛ لأنه يمنع العين من رؤية الارتفاع والانحدار في الأرض.

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: قد فرقوا بين العِوج والعَوج فقالوا: العِوج بالكسر في المعاني والعَوج بالفتح في الأعيان، والأرض عين، فكيف صحّ فيها المكسور العين؟

قلت: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والمَلاسة، ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها، وبالغت في التسوية على عينك وعيون البصراء من الفلاحة، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط، ثم استطلعت رأي المهندس فيها، وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج في غير موضع لا يدرك ذلك بحاسة البصر، ولكن بالقياس الهندسي، فنفى الله -عز وجل- ذلك العوج الذي دق ولطف عن الإدراك، اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فقيل فيه: عِوج بالكسر، والأمت: النتوء اليسير، يقال: مد حبله حتى ما فيه أمت. انتهى منه، وقد قدّمنا في أول سورة الكهف ما يغني عن هذا الكلام الذي ذكره، والعلم عند الله تعالى"[1].

وقال -رحمه الله-: "قوله: {يَوْمَئِذٍ} أي: يوم إذ نسفت الجبال يتبعون الداعي، والداعي: هو الملَك الذي يدعوهم إلى الحضور للحساب، قال بعض أهل العلم: يناديهم أيتها العظام النخرة، والأوصال المتفرقة، واللحوم المتمزقة، قومي إلى ربك للحساب والجزاء، فيسمعون الصوت ويتبعونه.

ومعنى {لا عِوَجَ لَهُ}، أي: لا يحيدون عنه، ولا يميلون يميناً ولا شمالاً، وقيل: لا عوج لدعاء الملَك عن أحد، أي: لا يعدل بدعائه عن أحد، بل يدعوهم جميعاً، وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من اتباعهم للداعي للحساب، وعدم عدولهم عنه بيّنه في غير هذا الموضع، وزاد أنهم يسرعون إليه كقوله تعالى: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ}[سورة القمر:٦-٨]، والإهطاع: الإسراع، وقوله تعالى: {وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ} [سورة ق:٤١-٤٢]، وقوله تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ} [سورة الإسراء:٥٢]، الآية، إلى غير ذلك من الآيات"[2].

وقال ابن القيم -رحمه الله-: "قول الله -تعالى ذكره-: {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ}، أي: يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته لا يعرجون عنه.

---

١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (٩٩/٤).

٢ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للعلامة الشنقيطي (١٠٠/٤).

قال الفراء: وهذا كما تقول: دعوتك دعوة لا عوج لك عنها، وقال الزجاج: المعنى لا عوج لهم عن دعائه، أي: لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده، فإن قلت: إذا كان المعنى لا عوج لهم عن دعوتي فكيف قال: {لَا عِوَجَ لَهُ}؟، قيل: قالت طائفة: اللام بمعنى عن، أي: لا عوج عنه، وقالت طائفة: المعنى لا عوج لهم عن دعائي كما قال الزجاج، وفي القولين تكلف ظاهر ولما كانت الدعوة تُسمع الجميعَ لا تعوج عنهم وكلهم يؤم صوت الداعي ويتبعه لا يعوج عنه كان مجيء اللام منتظماً للمعنيين ودالاً عليهما، والمعنى لا عوج لدعائه لا في إسماعهم إياه، ولا في إجابتهم له"[٣].

وقوله: {لَا عِوَجَ لَهُ} لا عوج لدعائه فيصل إلى الجميع، ولا عوج لهم عن دعائه فيستجيب له الجميع.

وقوله: {وَخَشَعَتِ الأصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ} قال ابن عباس: سكنت، وكذا قال السُدي {فَلاَ تَسْمَعُ إِلاّ هَمْساً} قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: يعني وطء الأقدام، وكذا قال عكرمة ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس وقتادة وابن زيد وغيرهم.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {فَلاَ تَسْمَعُ إِلاّ هَمْساً} الصوت الخفي، وهو رواية عن عكرمة والضحاك، وقال سعيد بن جبير {فَلاَ تَسْمَعُ إِلاّ هَمْساً} الحديث وسرّه، ووطء الأقدام.

يقال للصوت الخفيف همس، ولهذا يقال لصوت وطء الأقدام: همس، ويقال: للأسد الهموس؛ لأنه إذا مشى في الليل يمشي مشياً خفيفاً، تصور عند هدئة الأصوات، وسكون الناس حينما لا تسمع إلا صوت أقدام، ولهذا يقولون لصوت الأقدام أو لصوت خفاف الإبل وهي تمشي: همس، وصوت خفاف الإبل أو صوت المشي الخفيف الذي يظهر معه صوت وقع الأقدام لا شك أنه صوت يسير، يصح إطلاق الهمس عليه، كما يطلق أيضاً على الصوت الخفيف، حينما يتكلم الإنسان بصوت يسمعه من يلاصقه، تقول: همس في أذنه، يهمس، {فَلاَ تَسْمَعُ إِلاّ هَمْساً} بعضهم يقول: وقع الأقدام على الأرض، يمشون، يتبعون الداعي، وقال: "**الحديث وسرّه، ووطء الأقدام**"، قاله سعيد بن جبير -رحمه الله.

{يَوْمَئِذٍ لاّ تَنفَعُ الشّفَاعَةُ إِلاّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيّ الْقَيّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً} [سورة طه:١٠٩-١١٢].

يقول تعالى: {يَوْمَئِذٍ}، أي: يوم القيامة، {لاّ تَنفَعُ الشّفَاعَةُ}، أي: عنده، {إِلاّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً}، كقوله: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [سورة البقرة:٢٥٥]، وقوله: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [سورة النجم:٢٦]، وقال: {وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}[سورة الأنبياء:٢٨]، وقال: {وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} [سورة سبأ:٢٣]، وقال: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً} [سورة النبأ:٣٨]، وفي الصحيحين من غير وجه عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلائق على الله -عز وجل- أنه قال: ((آتي تحت العرش، وأخر لله ساجداً، ويفتح عليّ بمحامد لا

---

٣ - التبيان في أقسام القرآن، للإمام ابن القيم الجوزيه (١٢٤).

أحصيها الآن، فيدعني ما شاء أن يدعني، ثم يقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة ثم أعود، فذكر أربع مرات))[٤]، -صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء-، وفي الحديث أيضاً: ((يقول تعالى: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقول: أخرجوا من النار من كان في قلبه نصف مثقال من إيمان، أخرجوا من النار من كان في قلبه ما يزن ذرة، من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان))[٥] الحديث.

وقوله: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}، أي: يحيط علماً بالخلائق كلهم {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}، كقوله: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}[البقرة: ٢٥٥]، وقوله: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا ينام، وهو قيم على كل شيء يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه لا قوام له إلا به.

قوله -تبارك وتعالى-: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}، ما بين أيديهم مما يستقبل من أمر الساعة، وما خلفهم ما تركوه ورائهم من أمر الدنيا، والكلام على قوله تعالى: {لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا} [سورة مريم:٦٤]، وهناك من قال من أهل العلم أقوالاً غير هذا أيضاً، بعضهم يقول: ما بقي من الدنيا، وبعضهم يقول: البرزخ، لكن الفرق بين المقامين أن هذا قاله الله -عز وجل- في الآخرة، وذاك في الدنيا، و{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} يعني من أمر الدنيا والآخرة، أي يحيط علماً بالخلائق كلهم، بعضهم يقول: إن المراد بقوله: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} الضمير يرجع إلى الذين يتبعون الداعي، {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا}، {يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ} ثم قال: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} قال: "**أي يحيط علماً بالخلائق كلهم**"، وبعضهم يقول بأن الضمير يرجع إلى الملائكة، وهذا بعيد، قال: "{وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}، **كقوله**: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}"، وقال بعضهم قوله: {وَلَا

---

٤ - رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [سورة ص:٧٥]، برقم (٦٩٧٥)، عن أنس -رضي الله عنه- بلفظ قال فيه: ((فأنطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي عليه، فإذا رأيت ربي وقعت له ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي ارفع محمد، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع، فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها ربي، ثم أشفع، فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم أشفع، فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة، ثم أرجع فأقول: يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود))، ومسلم، كتاب الإيمان، باب أدني أهل الجنة منزلة فيها، برقم (١٩٣).

٥ - رواه الترمذي، كتاب صفة جهنم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء أن للنار نفسين وما ذكر من يخرج من النار من أهل التوحيد، برقم (٢٥٩٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في المسند برقم (١٢٧٧٢)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وبرقم (١٣٩٢٨)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، والطبراني في المعجم الأوسط واللفظ له برقم (٣٩٧٦)، كلهم من حديث أنس -رضي الله عنه-، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٦٤٥).

يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ} مع قوله هنا: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}، قيل: الضمير يرجع إلى الله -تبارك وتعالى-، {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ}، أي: بالله، بذاته، وأسمائه وصفاته، والقول الآخر: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ} أن الضمير يرجع إلى ما سبق من علم ما بين أيديهم وما خلفهم، {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}، أي: بعلم ذلك، أو: ولا يحيطون بذلك علماً، فهذان قولان، وبين هذين القولين ملازمة، فإذا كانوا لا يحيطون بعلم ما بين أيديهم وما خلفهم فإن كونهم لا يحيطون بالله -تبارك وتعالى- وذاته وأسمائه وصفاته وعلمه من باب أولى، وإذا كان الضمير يرجع إلى الله -تبارك وتعالى- لا يحيطون به ولا بذاته ولا بأسمائه ولا علمه فإن ذلك يتضمن علم ما بين أيديهم وما خلفهم؛ لأنه بعض من علم الله -جل جلاله-، فمثل هذا لا يحتاج معه إلى ترجيح.

وقوله: {وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً}، أي: يوم القيامة، فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء، وفي الحديث: ((يقول الله -عز وجل-: وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم))[٦]، وفي الصحيح: ((إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة))[٧]، والخيبة كل الخيبة من لقي الله وهو به مشرك، فإن الله تعالى يقول: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [سورة لقمان:١٣].

ظاهر كلام ابن كثير هو الذي ذهب إليه كثير من المفسرين، أن المقصود بالظلم هو الظلم الأكبر الذي هو الإشراك {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، وقوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [سورة الأنعام:٨٢]، فسرها النبي -صلى الله عليه وسلم- بالشرك بآية لقمان، وبعض أهل العلم رأى أن الخيبة هنا بمعنى الخسارة المحققة وأن هذه الخسارة المحققة إنما تكون للكافرين، فتكون لهم النار، ولذلك حملوها على الإشراك وأنه الظلم الأعظم، وبعض أهل العلم يقول: إن الآية على ظاهرها {وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً} فالظلم يقع على الإشراك ويقع على ما دونه، والحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فعلى قدر ما يكون له من الظلم يقع له من الخيبة.

وقوله: {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً}، لما ذكر الظالمين ووعيدهم، ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون، أي: لا يزاد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة وغير واحد، فالظلم الزيادة بأن يُحمَّل عليه ذنب غيره، والهضم النقص.

الهضم النقص، ولهذا يقال: هضْمُ الطعام بمعنى انتقاصه، وذلك لما يقع لهذا الطعام، فيقال فلان هضم الطعام، يهضم الطعام، بمعنى هضم الطعام فلا يبقى ثقله على المعدة، {فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً} هنا ذكر تفسير الظلم بأنه يزاد في سيئاته أو يحمل سيئات الآخرين، وهكذا قول من قال بأن الظلم بمعنى أنه لا يذهب حقه بالكلية، والهضم بمعنى أنه لا ينقص، فمعنى ذلك أنه يأخذ أجره وافياً لا يمنع من حقه، فيكون هذا هو الظلم، ولا ينقص منه فهذا هو الهضم، وكذلك أيضاً لا يُحمَّل سيئات غيره، والحاصل أنه لا يحصل له ظلم بتحمله

---

٦ - انظر: مسند الشاميين، لأبي القاسم الطبراني برقم (١٥٦).

٧ - رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٨)، من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما.

تبعة عمل غيره ولا يد له فيه، ولا يمنع من حقه بالكلية كما أنه لا يحصل له نقص في أجره وثوابه عند الله -تبارك وتعالى.

{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً * فَتَعَالَى اللّهُ الْمَلِكُ الْحَقّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ إَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً} [سورة طه:١١٣-١١٤]، **يقول تعالى: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً بلسان عربي مبين فصيح لا لبس فيه ولا عيّ، {وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} أي: يتركون المآثم والمحارم والفواحش، {أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً} وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات.**

يُفسر الذكر بالطاعة والقربات، فالذكر يقال للذكر باللسان، والذكر بالقلب، واستحضار عظمة الله -عز وجل- ومراقبته، ويقال أيضاً للذكر بالجوارح، والقيام بوظائف العبودية، بعض أهل العلم يفسر قوله: **{أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً}**، أي: اتعاظاً واعتباراً، وهذا قال به جمع من أهل العلم، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، وعلى هذا يكون تفسير من فسره -كالحافظ ابن كثير- بأنه فعل القربات والطاعات من باب الأثر واللازم، فإذا حصل للإنسان الاتعاظ والاعتبار بالقرآن فإن ذلك هو السبيل، أو أن هذا يقتضي العمل والطاعة، والتقرب إلى الله -تبارك وتعالى-، فإن الغفلة هي التي تحول بين الإنسان وبين الامتثال، وبعضهم فسر الذكر بالشرف كما قال بعضهم في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ}** [سورة الزخرف:٤٤]،أي: شرف، والأكثر في استعمال الذكر في القرآن أن المقصود به التذكر؛ وذلك بالاتعاظ والاعتبار، وطرد الغفلة، هذا هو الغالب في القرآن.

{فَتَعَالَى اللّهُ الْمَلِكُ الْحَقّ}، أي: تنزه وتقدس الملك الحق الذي هو حق، ووعده حق، ووعيده حق ورسله حق، والجنة حق والنار حق، وكل شيء منه حق، وعدله تعالى أن لا يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل، والإعذار إلى خلقه؛ لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة.

وقوله: {وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ}، كقوله تعالى في سورة لا أقسم بيوم القيامة: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [سورة القيامة:١٦-١٩]، **وثبت في الصحيح عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك به لسانه، فأنزل الله هذه الآية، يعني أنه -عليه السلام- كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه؛ لئلا يشق عليه، فقال: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}، أي: أن نجمعه في صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً، {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}، وقال في هذه الآية: {وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ}، أي: بل أنصت، فإذا فرغ الملَك من قراءته عليك فاقرأه بعده، {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً}، أي: زدني منك علماً، قال ابن عيينة -رحمه الله-: ولم يزل -صلى الله عليه وسلم- في زيادة حتى توفاه الله -عز وجل.**

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ}، هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حيث فسره بقوله: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}، والحديث في سبب نزولها هو الأقرب -والله تعالى أعلم-، ومن أهل العلم من فسره بغير هذا، فابن جرير -رحمه الله-: يرى أن المعنى {وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ}، أي: في إقرائه لأصحابك، وإملائه عليهم {مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ}، أي: قبل أن نفُهمك ونبين لك معانيه حتى تفهمه، فلا تعجل بإقرائهم وإملائه عليهم، وتفسيرها بما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أولى للحديث وللآية الأخرى، لأنه تفسير لها بالقرآن، تفسير القرآن بالقرآن أقرب وأولى، وكذلك أيضاً هو تفسير بالسنة، وسبب النزول -كما هو معلوم- من فوائده أنه يبين ويجلي المعنى، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

قال المؤلف -رحمنا الله وإياه-: قال تعالى: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىَ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدم فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىَ * فَقُلْنَا يَآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىَ * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىَ * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَىَ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىَ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىَ * فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىَ ادمُ رَبَّهُ فَغَوَىَ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىَ} [سورة طه:١١٥-١٢٢]، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إنما سمي الإنسان؛ لأنه عهد إليه فنسي، وكذا رواه علي بن أبي طلحة عنه، وقال مجاهد والحسن: تَرَك.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىَ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً}، ذكر هذا بعدما ذكر تكذيب المكذبين بالقرآن والوحي، ومجادلة أو مكابرة المشركين في ذلك كله، فقال -تبارك وتعالى- بعده: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىَ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ}، وقال بعض أهل العلم: إن العصيان الذي يقع من بني آدم قد وقع لأبيهم، وذلك وجه المناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها، ومنهم من يقول غير ذلك، لكن المراد بقوله: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىَ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ} أن الله -تبارك وتعالى- نهاه عن أكل الشجرة، وعهد إليه بذلك فنسي، وهذا النسيان يحتمل معنيين -وهما المعنيان اللذان تأتي لهما هذه المفردة- فيحتمل أن يأتي بمعنى الذهول عن المعلوم، ويحتمل أن يأتي بمعنى الترك، وإذا أضيف ذلك إلى الله فهو دائماً بمعنى الترك، إذا كان ذلك مثبتاً {نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ} [سورة الحشر:١٩]، مع قوله -تبارك وتعالى-: {لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى} [سورة طه:٥٢]، فالمنفي المراد به الذهول عن المعلوم، ذهاب المعلوم من الذهن، يقال: نسيت المسألة، نسيت الكتاب، ويأتي بمعنى الترك {نَسُوا اللَّهَ}، أي: فأعرضوا عنه وتركوا طاعته، {فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ} عاقبهم بأن اشتغلوا بما يضرهم وأقبلوا على ذلك وتركوا ما فيه صلاحهم ونفعهم وفلاحهم ونجاتهم، {نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ} [سورة التوبة:٦٧]، نسيهم في النار، تركهم في النار، وهكذا تركهم من رحمته في الدنيا وفي الآخرة، وقول ابن عباس -رضي الله عنهما-: "**إنما سمي الإنسان؛ لأنه عهد إليه فنسي**"، يُشعر بأنه يريد بذلك الذهول عن المعلوم، وهذا ليس محل اتفاق أن الإنسان قيل له إنسان بهذا السبب، وقيل: هذا من الأنس، ويقول الحافظ -رحمه الله-: "**وكذا رواه علي بن أبي طلحة عنه، وقال مجاهد والحسن: تَرَك**"، هذا المعنى الثالث، ترك، ترك هذا العهد الذي عهد إليه وهو النهي عن أكل الشجرة، فأكل منها، واختلف السلف في تفسيره فمنهم من يفسره بهذا، ومنهم من فسره بهذا، وتفسيرهم بالترك هو الأقرب ولا إشكال فيه، وأما تفسيره بالنسيان الذي هو بمعنى الذهول

-يعني: المعنى المتبادر للنسيان الشائع الأكثر استعمالاً، وهو خلاف قول الجمهور في هذه الآية، فالجمهور على الأول- تفسيره على الذهول وذهاب المعلوم لا يخلو من إشكال، وذلك أن يقول قائل: كيف يؤاخذ على النسيان؟! موسى -عليه الصلاة والسلام- يقول للخضر، بل قبل ذلك غلام موسى -عليه الصلاة والسلام- يقول له: {فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ} [سورة الكهف:٦٣]، وموسى -عليه الصلاة والسلام- حينما سأل واعترض على خرق السفينة وأنكر عليه ذلك الخضر، قال له: {لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ} [سورة الكهف:٧٣]، والله -عز وجل- يقول في القرآن: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} [سورة البقرة:٢٨٦]، وفي الحديث القدسي أن الله -تبارك وتعالى- قال: ((قد فعلت))[1]، والإشكال هو أنه إذا فسر النسيان بهذا الاعتبار وبهذا المعنى كيف يؤاخذ على هذا ويعاقب ويخرج من الجنة؟

وجواب أصحاب هذا القول عن هذا الإشكال والرد عليهم أنهم يقولون: إن وضع النسيان وعدم المؤاخذة عليه إنما هو في شرع هذه الأمة، وهذا من التخفيف عليهم، وأما الأمم السابقة فكانوا يؤاخذون بذلك، ويرد عليهم بأن ظواهر الآيات إذا جُمعت وما حصل من وسوسة الشيطان {هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى}، مع قول الله -عز وجل- لآدم -عليه الصلاة والسلام-: {إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} حذره من هذا كله، وهذا بعيد إذ كيف يحصل له النسيان الذي هو الذهول عن المعلوم مع هذه التحذيرات؟ والأقرب -والله أعلم- أن ذلك يراد به الترك، ترك ما عهد الله به إليه فأكل من هذه الشجرة، قال: {وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} [سورة طه:١١٥]، والعزم بمعنى توطين النفس على الشيء والتصميم عليه، بمعنى أن العزم هو القصد، قصد القلب المصمم يقال له عزم؛ لأن الإرادات التي تحصل من الإنسان انبعاث النفس، وإرادتها على درجات متفاوتة، فتارة يكون الشيء خاطراً، يعرض للإنسان ثم بعد ذلك ما يلبث أن يُدفع أو يضمحل ويتلاشى، وتارة يبقى ويستقر ويتغلغل فيكون فكرة، وإذا ثبت صار عقيدة، فإذا أقبل على الشيء وأراد الفعل أو الترك وليس بمجرد الإرادة الضعيفة التي يحصل فيها شيء من التردد فإن ذلك يكون عزماً، فإن كان ضعيفاً بأول الإرادة فهو الذي يقال له الهَمّ، هَمّ بكذا، هممت أن أسافر، وتقول: عزمت على السفر، بمعنى القصد المصمم، {وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا}، وبعضهم فسره بالصبر، {وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} وبين المعنيين نوع ارتباط فإن الذي يعزم على الشيء لابد له من الصبر حتى يحققه، فإن عزم على الترك فلابد له من الصبر حتى يتجنبه، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: إن الإنسان قد يعزم على الشيء لكنه إذا وقع ذلك لا يصبر، وقد يعزم على الصبر على المصيبة، فإذا وقعت المصيبة لم يصبر، وهكذا في التكاليف الشاقة، كبني إسرائيل {إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ} [سورة البقرة:٢٤٦]، فلما قال لهم ما قال، {قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ} [سورة البقرة:٢٤٦]، ثم بعد ذلك ما لبثوا حتى تساقط مجموعة أخرى اعترضوا على أن يكون هذا الملك هو طالوت، ثم بعد ذلك ما لبث أن سقط مجموعة منهم حينما ابتلوا وامتحنوا بالنهر، مع أنهم كانوا قد عزموا في البداية، والله -تبارك وتعالى- عاتب المؤمنين فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ

---

١ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، بَابُ بَيَانِ قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ} [البقرة:٢٨٤]، برقم (١٢٦).

مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [سورة الصف:٢-٣]، وفي الأشهر من أقوال المفسرين فيها والتي تدل عليها رواية سبب النزول: أن الذي قالوه هو أنهم تمنوا أن يعرفوا أحب الأعمال إلى الله -عز وجل- حتى يفعلوه، فلما أخبروا أنه الجهاد تثاقلوا وتباطئوا، وهكذا أولئك الذين قالوا: {رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ} [سورة النساء:٧٧]، وكان يقال لهم: {كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} [سورة النساء:٧٧]، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ} [سورة الأحزاب:١٥]، قيل: بنو سلمة وبنو حارثة لما حصل لهم التراجع في يوم أحد ندموا على ذلك وعزموا على الصبر وعدم الفرار، والعزم على الشيء قد ينكسر وينثني إذا جاء الجد، فبين المعنيين ارتباط، فلا يمكن أن يتحقق ما عزم عليه إلا إذا وطن نفسه على الصبر، فإن الصبر هو السبيل إلى تحصيل المطلوب، وإلى توقي واجتناب المحظور، ولذلك لا يُحتاج إلى ترجيح بين القولين، وابن قتيبة يقول: {وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا}، أي: ولم نجد له رأياً معزوماً عليه، وهذا لا ينافي ما سبق، فالنهي عن أكل الشجرة ثم أكله منها يدخل فيما ذكر، والله أعلم.

وقوله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدم} يذكر تعالى تشريف آدم، وتكريمه وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً، وقد تقدم الكلام على هذه القصة في سورة البقرة، وفي الأعراف، وفي الحجر، والكهف، وسيأتي في آخر سورة ص، يذكر تعالى فيها خلْق آدم وأمْره الملائكة بالسجود له تشريفاً وتكريماً، ويبين عداوة إبليس لبني آدم ولأبيهم قديماً، ولهذا قال تعالى: {فَسَجَدُوَاْ إِلاّ إِبْلِيسَ أبى}، أي: امتنع واستكبر، {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنّ هَذَا عَدُوّ لّكَ وَلِزَوْجِكَ} يعني حواء -عليهما السلام-، {فَلاَ يُخْرِجَنّكُمَا مِنَ الْجَنّةِ فَتَشْقَىَ}، أي: إياك أن تسعى في إخراجك منها فتتعب وتعنى، وتشقى في طلب رزقك، فإنك هاهنا في عيش رغيد هنيء بلا كلفة ولا مشقة، {إِنّ لَكَ أَلاّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىَ}.

قوله: {فَلاَ يُخْرِجَنّكُمَا مِنَ الْجَنّةِ فَتَشْقَىَ} من المعلوم أنه إذا ذُكر شيئان فالضمير بعدهما يعود على واحد منهما لمعنى من المعاني، مثل: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا} [سورة الجمعة:١١]، قيل: إن التجارة هي المقصودة وليس اللهو الذي كان معها، وقيل: ضربُ الطبل إذاناً بوصولها، هكذا قال كثير من المفسرين، والشاهد أنه أعاد الضمير إلى واحد، فقال: {فَلاَ يُخْرِجَنّكُمَا مِنَ الْجَنّةِ فَتَشْقَىَ} ولم يقل: فتشقيا، أو تشقيان، باعتبار أن الكسب والكد وطلب الرزق، والحرث يقوم به الرجل، والمرأة في خدرها، فالعمل موكول بالرجل، {فَلاَ يُخْرِجَنّكُمَا مِنَ الْجَنّةِ} هذا العيش الرغيد الذي لا يحتاج منكم إلى سعي في طلبه وتحصيله، ولا كدٍّ، ولا زرع، ولا طحن، ولا عجن، ولا ذهاب ومجيء وبيع في الأسواق، {فَتَشْقَىَ}، يشقى الرجل في الخروج من بيته في طلب الرزق، والمرأة تبقى في خدرها لا تخرج، فنسب الشقاء إليه، ومن هذه الآية استنبط بعض أهل العلم -كالقرطبي -رحمه الله- أن نفقة المرأة تجب على الرجل كان أباً، أو زوجاً، وهذا استنباط دقيق، وهذه الآية هي من القصص القرآنية، وما سيقت من أجل تقرير حكم ابتداء، يعني: ليست من آيات الأحكام التي هي صريحة في ذلك، وكثير ممن كتبوا في أحكام القرآن يقتصرون على خمسمائة آية، كما فعل مقاتل بن سليمان المتوفي سنة ١٥٠هـ، تفسير الخمسمائة آية، التي هي الآيات الصريحة في تقرير الأحكام، وفي قصص الأنبياء تجد أحكاماً.

وهذا الدرس يُعلَّق فيه على ما يحتاج إلى تعليق، وتوجيه وجمع بين الأقوال، وللمناسبة في هذا العصر وهذه الاستفزازات للمرأة والدعوة إلى الاختلاط، ويقال: هذه هي الفطرة الإنسانية، وما جبل الله -عز وجل- عليه الخليقة، حيث ركب الرجل بهذا التركيب من الصبر، والتحمل للكد والسعي والعمل على طلب الرزق، والمرأة تبقى مصونة محفوظة، وجعل فيه الغيرة عليها، فهي عورة وإذا خرجت استشرفها الشيطان، أي همّ بها أو أغرى بها وزينها للناظرين، فينبغي أن تبقى محفوظة بعيدة عن أنظار الرجال، تربي الصغير، وتقوم على المريض، وتهيئ الدار لزوجها وشريك حياتها، فإذا جاء وجد كل شيء قد هُيئ، فيجد راحة البال في بيته إذا رجع إليه من أعماله الشاقة، وأما إذا استفزت المرأة المسكينة للعمل، وخرجت وصارت أجيرة تكدح وتسعى هي وزوجها، ولربما هي التي تسعى وتكدح والزوج جالس في البيت، فإن ذلك يفسد نظام الحياة، من تحميل المرأة ما لا تحتمل، ومن إفساد الجيل والنشء حيث لا يتلقون التربية، وهؤلاء هم الرصيد الحقيقي للأمة ولمستقبلها، فيربيهم الخدم، لا يربونهم على الدين ولا على القيم، ولا على الفضائل، ويحصل من الاضطرابات في الحياة الأسرية من جهات متعددة، هذه المرأة المسكينة يحصل لها من القلق والضعف والتوتر والانشغال مما يدفع ضريبته هذا الزوج البائس المسكين، وهم إنما يفعلون ذلك من أجل أن لا تبقى حبيسة في الدار، ويؤتى باثنتين على الأقل أو ثلاث واحدة تطبخ وتربي، وواحدة تخدم وتكنس، وسائق يذهب ويجيء، هذا في أقل الحالات، وربما يأتي بمربية، أو بأكثر من سائق، وفي بعض التقارير في بعض المنظمات التابعة للأمم المتحدة أن المرأة العاملة في البلاد التي تعمل فيها المرأة تكون عبئاً على اقتصاد البلد بنسبة أربعين بالمائة، وهؤلاء يعرفون هذا الكلام جيداً، هؤلاء الذين يطالبون ويكتبون ويتبجحون في كل مناسبة وبدون مناسبة، يطالبون بخروج المرأة، ويوجد من يلقنهم أن الحرام الخلوة وليس الاختلاط، ويحتجون بأشياء كالطواف وبالمسجد النبوي، ما شاء الله تبارك الله، وللأسف كل هذا يلقى رواجاً في مثل هذه الأيام، تقحم المرأة إقحاماً؛ من أجل أن تخرج وتشقى، والله -عز وجل- يقول: **{فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىَ}**، والآن يريدون أن يشقوها معه أيضاً، والمرأة مسكينة تصدق هذا الكلام، وتخرج من أجل أن يكون لها قيمة، وأن يكون لها دور في المجتمع ما يبقى نصف المجتمع معطل، وصار حتى الدعاة يضطرون عند الكلام على هذه القضية أن يقولوا: لا يا امرأة، أنتِ لكِ دور ريادي، ودور مهم، وأنتِ لكِ دور قيادي لا يستهان به، فأنتِ التي تحضنين وتربين وتنشئين، ونصف المجتمع، تخرج القادة على يدك والعلماء والكبراء والملوك.

الأم مدرسة إذا أعددتها *** أعددت شعباً طيب الأعراقِ

وراء كل رجل عظيم امرأة، ويقولون لها كلاماً؛ لأن هذا الكلام يدغدغ مشاعرها، ويصل إلى الأعماق، وهي ضعيفة مسكينة، فإذا قالوا لها: أنتِ نصف المجتمع، محبوسة في البيت، ما تخرجين، أنتِ طاقة معطلة تأثرت، فيضطر الدعاة أن يقولوا: لا، أنتِ مهمة، من قال إنكِ مهضومة أو مكسورة الجناح، ولكِ دور قيادي وريادي، الإنسان الذي هو واثق من نفسه، وعارفٌ نفسه لا يحتاج أن يقال له هذا الكلام، والله المستعان، **{فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىَ}**.

قال تعالى: {إِنّ لَكَ أَلاّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىَ} إنما قرن بين الجوع والعُرْي؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعُرْي ذل الظاهر، {وَأَنّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَىَ} وهذان أيضاً متقابلان، فالظمأ حر الباطن وهو العطش، والضحى حر الظاهر.

ضحا فلان فهو ضاحٍ إذا خرج وبرز من حر الشمس، لا يكنّه منها شيء، ولهذا يخرج الحجاج يأتون شعثاً غبراً ضاحين، يعني: للشمس، لا يكنهم منها شيء، فهنا: {إِنّ لَكَ أَلاّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَىَ * وَأَنّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَىَ}، الجوع والعري بينهما ارتباط، فالجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر، {وَأَنّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَىَ} فالظمأ يعني حرارة العطش، {وَلاَ تَضْحَىَ} التعرض لحر الشمس، الخروج إليها، هذا حرارة الظاهر، فجمع بين هذا وهذا، وقوله -تبارك وتعالى-: {وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} [سورة الإنسان:١٢]، فالجنة فيها معنى السعة وفيها معنى البرودة، والحرير فيه معنى الليونة والنعومة، {وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا} فلما كان الصبر فيه من الحرارة، وفيه خشونة وفيه ضيق وحبس للنفس،

والصبرُ مثل اسمه مُرٌّ مذاقه *** لكن عواقبه أحلى من العسل

قابل ذلك بهذه الأمور {وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} السعة مكان الضيق، والبرودة مكان حرارة الصبر، وليونة الحرير مكان خشونة الصبر، وهذا المعنى ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله.

وقوله: {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشّيْطَانُ قَالَ يَآدَمُ هَلْ أَدُلّكَ عَلَىَ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاّ يَبْلَىَ} قد تقدم أنه دلاهما بغرور، {وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [سورة الأعراف:٢١]، وقد تقدم أن الله تعالى عهد إلى آدم وزوجه أن يأكلا من كل الثمار ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة، فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها وكانت شجرة الخلد، يعني التي من أكل منها خلد ودام مكثه، وقد جاء في الحديث ذكر شجرة الخلد، وروى أبو داود الطيالسي عن أبي هريرة -رضي الله عنه- يحدث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها وهي شجرة الخلد))[٢] ورواه الإمام أحمد.

قوله: {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشّيْطَانُ قَالَ يَآدَمُ هَلْ أَدُلّكَ عَلَىَ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاّ يَبْلَىَ} أصل هذه المادة الوسوسة تقال للصوت الخفي أو الخفيف أو الضعيف، ولهذا يقال لصوت الحلي الذي تلبسه المرأة: وسوسة، وهو الصوت الصادر عنه إذا تحركت المرأة، وهنا سؤال يمكن أن يُطرح وهو أنه كيف وسوس إليه وآدم في الجنة مع أن إبليس قد طرد وأبعد وأخرج؟ فبعض أهل العلم يقول: دخل في صورة الحية، والملائكة لم تتفطن لهذا، وهذا من الإسرائيليات ولا حاجة إليه، ويمكن أن يقال: إنه وسوس لهما وهو خارج الجنة، خاطبهما وهو خارج الجنة.

وقوله: {فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا} روى ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس، كأنه نخلة سَحُوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فأخذت شعرَه شجرةٌ فنازعها، فناداه الرحمن: يا آدم مني تفر؟، فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب لا، ولكن استحياء، أرأيت

---

٢ - رواه أبو داود الطيالسي في مسنده برقم (٢٦٧٠)، وأحمد في المسند برقم (٧٤٩٨)، وقال محققوه: حديث صحيح.

إن تبت ورجعت أعائدي إلى الجنة؟ قال: نعم))، فذلك قوله: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}[٣]، وهذا منقطع بين الحسن وأبي بن كعب، فلم يسمعه منه، وفي رفعه نظر أيضاً.

النخلة السَّحوق يعني النخلة الرفيعة جداً، الطويلة التي لا يوصل إليها، كما في الحديث بأنه كان طوله ستين ذراعاً في السماء.

والكلمات التي تلقاها آدم -عليه الصلاة والسلام- هي قوله -تبارك وتعالى-: {قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [سورة الأعراف:٢٣]، هذه هي الكلمات، {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ} وفي القراءة الأخرى المتواترة: {فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٌ}، وقوله: {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا} سوءات جمع سوءة وهي العورة، وقيل لها سوءة؛ لأن ظهورها وانكشافها مما يسوء الإنسان، وهو أمر لا يَجْمل ولا يحسن لا من جهة الديانة، ولا من جهة الفطرة، ولا من جهة المروءة، ولهذا لما حصل ذلك لآدم -عليه الصلاة والسلام- مباشرة {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ}، هذه فطرة، فطر الله -عز وجل- الخلق عليها، ولهذا فإن خلافها من التعري هو من عمل الشيطان وخلاف الفطرة، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا} [سورة الأعراف:٢٧] {يَنزِعُ} يعني: الشيطان، فهذا التعري الذي يعتبره كثير من الناس تحرراً ومدنية متقدمة متطورة متحضرة هذا خلاف الفطرة، وجهالة، وانتكاس، ورجوع إلى البهيمية، إنما يكون ذلك للحيوانات، وأما الفِطَر فإنها تأبى ذلك، هذا آدم وزوجه في الجنة -عليه الصلاة والسلام- يخصفان عليهما من ورق الجنة، وهنا قال: {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا} السوءات جمع مع أن المذكور قبله مثنى، ووجه ذلك أن يقال بأن السوءات جُمع هنا باعتبار أن لكل واحد منهما قبلاً ودبراً، فصار ذلك أربعة، فجمعها بهذا الاعتبار، وقيل: إن ذلك باعتبار أن أقل الجمع اثنان، وهذا مذهب معروف لبعض أهل العلم، هم مختلفون في أقل الجمع هل هو ثلاثة أو اثنان، فبعضهم يقول: اثنان، والجمهور يقولون ثلاثة، بعضهم يقول: اثنان ويحتج لهذا من القرآن بقوله: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} [سورة البقرة:١٩٧] أشهر، قالوا: وأشهر الحج: شوال وذوالقعدة وعشر من ذي الحجة، فهو شهران وعشرة أيام، لكن هذا ليس بصريح؛ لأن الآخرين يقولون: هذا لجبر الكسر، وبعضهم يقول: إلى نهاية ذي الحجة، لكن أصرح من هذا وأوضح قوله -تبارك وتعالى-: {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ}[سورة النساء:١١]، هذا الذي يسمونه في الفرائض الحجب بالنقصان وليس بحجب الحرمان، فالأم ينقص نصيبها من الثلث إلى السدس إن كان له إخوة، فالإخوة الذي يحصل حجب النقصان للأم بوجودهم اثنان فعبر عنه بالجمع {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ}، بهذا يقول في مراقي السعود:

أقل معنى الجمع في المشتهر *** اثنان عند الإمام الحِميري

يعني: عند الإمام مالك -رحمه الله-، وهذا قول له وجهه، وهو أحد الأجوبة عن ذكر الجمع بعد المثنى في السوءات، لم يقل: فبدت لهما سوءتاهما، وإنما قال: {سَوْءَاتُهُمَا}، وبعضهم يقول غير هذا.

---

٣ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٤٩١/٥) برقم (٨٣٢٦)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (٦٠٣٣).

وقوله: {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ} قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب، وكذا قال قتادة والسدي.

قوله: {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ}، طفقا بمعنى أقبلا، أو جعلا، وأفعال المقاربة والشروع بمعنى أخذ في كذا، {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ} يعني أقبلا أو جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة، يخصفان أي يلصقان عليهما من ورق الجنة، يقال: خصف الورق على بدنه، يعني: ألصقها وأطبقها عليه ورقةً ورقةً، كما يقال في خصف النعل: يخصف نعله، بمعنى أنهما يستتران بهذه الأوراق.

وقوله: {وَعَصَىَ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىَ * ثُمّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىَ} روى البخاري عن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((حاج موسى آدم، فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني أو قدره الله عليّ قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فحج آدم موسى))[٤]، وهذا الحديث له طرق في الصحيحين، وغيرهما من المسانيد.

قوله: {وَعَصَىَ آدَمُ رَبّهُ فَغَوَىَ} بعضهم يقول: غوى يعني ضل عن الصواب، وبعضهم يقول: غوى أي فسد عليه عيشه، وتلاشى ذلك النعيم وذهب واضمحل، وبعضهم يقول: غوى أي جهل موضع رشده، والمعتزلة فسروا ذلك بتفسير لا يصح من جهة اللغة في هذا الموضع، وهو خلاف الظاهر المتبادر من هذه اللفظة، قالوا: غوى بمعنى بشم، ومعنى ذلك إذا امتلأ بطنه، يعني أكل أكلاً كثيراً، بشم، تقول: بشم الفصيل، أي رضع أكثر من حاجته، فيقولون: إن المقصود {وعَصَىَ آدَمُ رَبّهُ فَغَوَىَ}، أي: بشم من كثرة الأكل من الشجرة، وهذا بعيد، وهذا إنما فعلوه من أجل أن يقرروا أصلهم في هذا الباب، وهو أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا تقع منهم المعصية، وهم معصومون من المعاصي، والمسألة فيها كلام كثير معروف في كتب العقائد، وعند الأصوليين أيضاً، والخلاف هل تقع المعصية من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أو لا؟، فالذين يقولون تقع منهم يحتجون بأدلة منها هذا الدليل وهو من أوضحها وأصرحها {عَصَىَ}، فإذا أولوا غوى فلا يستطيعون تأويل عصى، ويحتجون بقوله -تبارك وتعالى-: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [سورة الفتح:٢]، فالغفر إنما يكون لذنب يقع، وحينما قيل للنبي -صلى الله عليه وسلم-: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك؟! قال: ((أفلا أكون عبداً شكورا؟))[٥]، والذين يقولون بوقوع المعصية منهم يقولون: لكن لا يقع منهم الإشراك، ولا تقع منهم الكبائر، ولا الصغائر المدنسة التي يسمونها صغائر الخسة، يعني: التي تسقط المروءات، ولا يصرون على الذنب والمخالفات، بل يبادرون بالتوبة، ولا حاجة لتحريف آيات القرآن من أجل عقيدة أو منهج يعتقدها أحد من الناس {وعَصَىَ آدَمُ رَبّهُ فَغَوَىَ} هذه صريحة، وبعضهم حينما يرى صراحة هذه الآية ممن يقولون إن المعاصي لا تقع من الأنبياء يقولون: هذا قبل أن يكون نبياً، فحينما أكل من الشجرة لم يكن نبياً وقتئذ، وهذه دعوى لا دليل عليها.

---

٤ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} [سورة طه:١١٧]، برقم (٤٤٦١).

٥ - رواه البخاري، كتاب التهجد، باب قيام النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى تَرِمَ قدماه، برقم (١٠٧٨)، ومسلم، كتاب في صفات المنافقين وأحكامهم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، برقم (٢٨١٩).

والمحاجة بين آدم وموسى لا إشكال أن تقع بعدما توفي موسى -عليه الصلاة والسلام- ولقيه في الملأ الأعلى، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لقي الأنبياء، لقي آدم وموسى كما هو معلوم في ليلة المعراج فلا إشكال في هذا، وحصلت المراجعة بينه وبين موسى -عليه الصلاة والسلام- في فرض الصلوات، والمحاجة التي حصلت، وآدم -عليه الصلاة والسلام- حينما اعتذر بقوله: ((أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني، أو قدره عليّ قبل أن يخلقني؟)) هذا ليس من باب الاحتجاج بالقدر على المعايب والمعاصي، وهذا لا يجوز أصلاً أن يحتج الإنسان على المعيبة في الذنب والمعصية بالقدر، وإنما هو من قبيل الاحتجاج بالقدر على المصيبة، والفرق ظاهر أن الإنسان إذا وقع منه الذنب فليس له أن يبرر وقوعه بالذنب فيصر عليه ويبقى محتجاً بالقدر، ولكن من تاب وترك وأقلع، وبقيت آثار هذا الجرم، ثم بعد ذلك عوتب فإن له أن يحتج بالقدر فيقول: هذا أمر قد قضاه الله وكتبه عليّ، فلا داعي لمثل هذه المعاتبة، هو يحتج بالقدر على المصيبة التي حصلت.

قال تعالى: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} [سورة طه:١٢٣-١٢٦]، **يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعاً، أي: من الجنة كلكم، وقد بسطنا ذلك في سورة البقرة.**

قال الله -تبارك وتعالى-: {اهْبِطُواْ} [سورة البقرة:٣٦]، ثم قال هنا: {اهْبِطَا مِنْهَا}، من أهل العلم من يقول: إن المخاطب هو آدم وحواء، {اهْبِطَا}، ووجه الجمع مع قوله بعده، {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} ولم يقل: بعضكما لبعض عدو، الذين قالوا آدم وحواء فقط قالوا: {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} بمعنى الذرية فحصل بينهم العداوة والبغضاء والتطاحن والشر كما هو معلوم، وبعضهم يقول: إن قوله: {اهْبِطَا مِنْهَا} لآدم وحواء، وإن قوله: {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} يعني أن ذلك مع الشيطان، وبعضهم يقول: إن قوله: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}، يعني أنتما أعداء للشيطان، والشيطان عدو لكما، {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم}، العدو جنس يصدق على الواحد والعدد والكثير، كما قال الشاعر:

بها جيف الحسرى فأما عظامها *** فبيض وأما جلدها فصليب

بها جيف الحسرى المقصود بها الإبل التي تنقطع في الأسفار من الكلال والتعب يتركها أصحابها تموت، فالشاعر يمدح نفسه أنه يقطع الفيافي والأماكن التي لا يقطعها أحد:

بها جيف الحسرى فأما عظامها *** فبيض وأما جلدها فصليب

تسلخت منها جلود، وعظامها جمع، وقال: وأما جلدها ولم يقل: وأما جلودها، فقوله: وأما جلدها، أي: الجلود فهو جنس يسقط على الواحد والكثير، ثم يقال: {خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [سورة العنكبوت:٤٤] الأرض مفرد، وهو جنس يصدق على العدد أيْ سبع من الأرضين، وهكذا في مواضع كثيرة، {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ} [سورة النور:٣١] يعني: أو الأطفال، هو بمعنى الجمع.

{بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} قال: آدم وذريته، وإبليس وذريته، وقوله: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى} قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان، {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَىَ} قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة.

الذين قالوا بأن المقصود بقوله: {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} يعني مع إبليس قالوا {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى} الخطاب للجميع، فيدخل فيه إبليس، بمعنى الذرية أيضاً؛ لأن الجن من ذرية إبليس، وإن لم يكن هذا محل اتفاق، فالكفرة منهم يقال لهم: شياطين.

قوله: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي}، أي: خالف أمري وما أنزلتُه على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه {فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً}، أي: ضنكا في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله وإن تنعّم ظاهرُه.

قوله: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي}، ذكري مصدر، ويحتمل أن يكون قد أضيف إلى الفاعل، ويحتمل أنه قد أضيف إلى المفعول، ويحتمل أن يكون المعنى أي: لم يذكرني، لم يذكر ربه، لم يذكره بقلبه إذ صار غافلاً، ولم يذكره بلسانه، ولم يذكره بجوارحه بالعمل في طاعته ومرضاته، {أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي} لم يذكرني، ويحتمل أن يكون المعنى أعرض عن ذكري، أي: عن مذكوري، فيكون هنا مضافاً إلى المفعول، ومعنى ذلك أن ذكره -تبارك وتعالى- هو القرآن، من أعرض عن القرآن فلم يقرأه، ولم يتدبره، ولم يعمل به ولم يتحاكم إليه {فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً}، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فمثل هذه الآية تحتمل المعنيين، ويمكن أن تحمل على هذا وهذا، يقال: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي} أي: لم يذكرني، فيحصل له من الوحشة والضيق والحرج في الصدر، وتظلم نفسه بقدر ما فيه من الغفلة والإعراض عن ذكر الله -عز وجل-، وهكذا أيضاً من أعرض عن القرآن فلم يقرأه ولم يتدبره ونحو ذلك فإنه يضيق عيشه، وتضيق نفسه، والعلماء -رحمهم الله- بعضهم يقول: إن هذا في الدنيا، وبعضهم يقول: إن هذا في البرزخ، {فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً} الضنك الضيق، هذه المعشية الضنك بعضهم يقول: تحصل له في الدنيا بالوحشة، وما يحصل له من ضيق الصدر، فإنه على قدر ما يحبس الإنسان نفسه عن المعاصي والمخالفات ويحملها على النصب في طاعة الله -تبارك وتعالى- على قدر ما يحصل من الاتساع في الصدر، إذا ضيق الإنسان على نفسه فلم يطلقها ويسرحها في أودية الهلاكة والمعصية اتسع الصدر، فاحبس الجوارح عن المعصية، واحملها على الطاعة يتسع الصدر، والعجيب أن الناس يطلقون النظر، أو السمع، أو فعل ومقارفة ما لا يليق من أجل تحصيل اللذات، وما علموا أن اللذة تحصل بالكف عن مثل هذا، وأنه على قدر إقباله على هذه الذنوب والمعاصي على قدر ما يحصل له من الألم والانقباض والحسرة والوحشة التي تكون بقلبه، لهذا يقول ابن القيم -رحمه الله-: إن في القلب وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وفيه فاقة لا يذهبها إلا صدق اللجأ إليه، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدا، وهو مجبول على هذا الفقر إلى ربه وخالقه ومولاه -تبارك وتعالى-، وبعضهم يقول: هذا في البرزخ {فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}[سورة طه:١٢٤]، والسبب الذي حمل هؤلاء على هذا القول هو أنهم يقولون: إن الدنيا نرى فيها من هو في بحبوحة واسعة من المعرضين عن ذكر الله -عز وجل- وطاعته والإيمان، ولذات

يتقلب فيها، ونجد من المقبلين على طاعة الله -عز وجل- من يتقلب في ألوان الفقر والمعاناة، والبؤس، والمرض، وما أشبه ذلك، قالوا: إذن هي في البرزخ، وهذه الطريقة التي يقررون بها هذا القول غير دقيقة، والسبب أن الضنك والضيق والحسرة والألم وما أشبه ذلك ليس هو ألم الجوارح، وبؤس الجوارح، إنما هو ألم القلب وضيق النفس، وما يحصل للإنسان من الوحشة وانقباض الصدر، ولهذا مهما كان الذي فيه هؤلاء المعرضون من النعيم واللذات فإن ذلك ليس هو السعادة والراحة، وإنما السعادة الحقيقية هي في طاعة المعبود -جل جلاله-، والإقبال عليه، فهذه السعادة الحقيقية، فهؤلاء نظروا إلى المسألة باعتبار لذات الأبدان لكن هل حياته حياة سعيدة؟، لا، فلا يجد انشراحاً وسروراً ونعيماً حقيقياً، الوحشة تقتلهم، وتلاحقهم بلذاتهم، وهذا شيء مشاهد، ولهذا يقال: إن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فالإنسان يحصل له من الحسرة والألم، وحرج الصدر وضيقه بقدر ما عنده من الإعراض عن ذكر الله -تبارك وتعالى- والجزاء من جنس العمل، ولهذا تجد الناس يتفاوتون في هذا السرور والراحة، راحة القلب، وطيب العيش، واتساع الصدر، بحسب ما عندهم من هذا المعنى، الإقبال على الله -عز وجل- وعبادته، الإقبال على كتابه فهذا هو {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا}، ولهذا ممكن أن يقال: {فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً} أول ما يدخل فيه هو الحياة الدنيا مما ذكرتُ، ولا مانع من أن يدخل في هذا كما يقول الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: البرزخ، فإن الله قال ذلك وأطلقه، وذكر بعده: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} فالذي يكون قبل يوم القيامة البرزخ والدنيا، ففي الدنيا له ضيق الصدر، وفي البرزخ يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، والله المستعان، وابن القيم -رحمه الله- له كلام طويل وجيد في هذا المعنى، فيقول -رحمه الله-: "قول الله -تعالى ذكره-: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} فذكْرُه كلامه الذي أنزله على رسوله، والإعراض عنه ترك تدبره والعمل به، والمعيشة الضنك فأكثر ما جاء في التفسير أنها عذاب القبر، قاله ابن مسعود وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري وابن عباس، وفيه حديث مرفوع، وأصل الضنك في اللغة: الضيق والشدة، وكل ما ضاق فهو ضنك، يقال: منزل ضنك، وعيش ضنك، فهذه المعيشة الضنك في مقابلة التوسيع على النفس والبدن بالشهوات واللذات والراحة فإن النفس كلما وسعتَ عليها ضيقت على القلب حتى تصير معيشة ضنكا، وكلما ضيقتَ عليها وسعت على القلب حتى ينشرح وينفسح، فضنك المعيشة في الدنيا بموجب التقوى سعتها في البرزخ والآخرة، وسعة المعيشة في الدنيا بحكم الهوى ضنكها في البرزخ والآخرة، فآثِرْ أحسن المعيشتين وأطيبهما وأدومهما وأشقِ البدن بنعيم الروح ولا تشقِ الروح بنعيم البدن فإن نعيم الروح وشقاءها أعظم وأدوم، ونعيمَ البدن وشقاءه أقصر وأهون، والله المستعان"[٦].

وقال -رحمه الله تعالى-: قال ابن عباس تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية، وقوله: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي}، يتناول الذكر الذي أنزله وهو الهدى الذي جاءت به الرسل ويدل عليه سياق الكلام وهو قوله: {وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى}.

---

٦ - الفوائد، لابن القيم (١٦٨-١٦٩).

فهذا هو الإعراض عن ذكره، فإذا كان هذا حال المعرض عنه فكيف حال المعارض له بعقله أو عقل من قلده، وأحسن الظن به؟، فكما أنه لا يكون مؤمناً إلا من قبِلَهُ وانقاد له، فمن أعرض عنه وعارضه من أبعد الناس عن الإيمان به"[٧].

يعني هذا المعرض فكيف بالمعارض، المعترض على أحكام الله -عز وجل-، وشرائعه التي يعارضها بمعقوله وذوقه وهواه؟، والآية الأخرى قوله -تبارك وتعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [سورة الحشر:١٩]، فأنساهم أنفسهم، -نسأل الله العافية-، بمعنى أنه صار اشتغالهم وكدهم وسعيهم وعملهم فيما يحصل به العطب والهلاك، والبوار، ويصير فرح هذا الإنسان وإقباله وبذله ونفقاته، وذهابه ومجيئه، -نسأل الله العافية-، فيما يرديه ويهلكه ويحصل له به البوار في الدنيا والآخرة، هذا إذا أنسى الله -عز وجل- العبد نفسه.

وقال -رحمه الله تعالى-: "وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، والصحيح: أنها في الدنيا وفي البرزخ فإن من أعرض عن ذكره الذي أنزله فله من ضيق الصدر ونكد العيش وكثرة الخوف، وشدة الحرص، والتعب على الدنيا، والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلام التي في خلال ذلك ما لا يشعر به القلب لسكرته وانغماسه في السكر، فهو لا يصحو ساعة إلا أحس وشعر بهذا الألم فبادر إلى إزالته بسكر ثانٍ، فهو هكذا مدة حياته، وأي عيشة أضيق من هذه لو كان للقلب شعور فقلوب أهل البدع والمعرضين عن القرآن وأهل الغفلة عن الله وأهل المعاصي في جحيم قبل الجحيم الأكبر، وقلوب الأبرار في نعيم قبل النعيم الأكبر، {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [سورة الإنفطار:١٣-١٤]، هذا في دُورهم الثلاث ليس مختصاً بالدار الآخرة، وإن كان تمامه وكماله وظهوره إنما هو في الدار الآخرة، وفي البرزخ دون ذلك كما قال تعالى: {وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ} [سورة الطور:٤٧]، وقال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ} [سورة النمل:٧١-٧٢]، وفي هذه الدار دون ما في البرزخ ولكن يمنع من الإحساس به الاستغراق في سكرة الشهوات، وطرح ذلك عن القلب وعدم التفكر فيه"[٨].

وقال أيضاً: وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعم منه وإن كان نكرة في سياق الإثبات فإن عمومها من حيث المعنى، فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإنْ تنعّم في الدنيا بأصناف النعم ففي قلبه من الوحشة، والذل، والحسرات التي تقطع القلوب والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق، وحب الدنيا والرياسة، إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر فسكرها -هذه الأمور- أعظم من سكر الخمر، فإنه يفيق صاحبه ويصحو، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا كان في عسكر الأموات"[٩].

---

٧ - الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم (٣/٨٤٥-٨٤٦)، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله.

٨ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم الجوزيه (١/٤٢٢-٤٢٣).

٩ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء) (١٢٠).

يريد أن يقول: إن هذه المعيشة الضنك تشمل الدنيا وتشمل البرزخ، وفي الآخرة في يوم القيامة يحشر بهذه الصفة {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [سورة طه:١٢٤-١٢٦]، وهذا إذا أردنا الترجيح بين القولين في معنى الذكْر {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي}، فإن القرينة تدل على أن المراد به القرآن، ولهذا قال به كثير من أهل العلم سلفاً وخلفاً؛ لأنه قال: {كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا}، لكن هذا لا يمنع من حمل الآية على المعنيين، -والله تعالى أعلم-، كما يقال أيضاً في المعيشة الضنك: إنها في الدنيا وفي البرزخ.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة طه (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول الله -تبارك وتعالى-: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [سورة طـــه:١٢٤-١٢٦]، قوله: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمَى} قال مجاهد وأبو صالح والسُدي: لا حجة له، بمعنى أن العمى هنا ليس عمى البصر، وإنما العمى عمى الحجة التي يتخلص بها من عذاب الله -تبارك وتعالى-، وقال عكرمة: عُمي عليه كل شيء إلا جهنم، فهذا القول بمعنى أنه عمى البصر، لا يرى شيئاً ولا يبصر إلا جهنم، فهذان قولان في تفسير العمى في هذه الآية.

واختلف المفسرون في المراد بالعمي في قول الله تبارك وتعالى: {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ} [سورة الإسراء:٩٧]، فقال بعضهم: إنهم يحشرون في هذه الصفة حقيقة، يعني: لا إبصار، ولا سمع ولا نطق، وبعضهم يقول: إن المراد أنهم لا يرون ما يضرهم، ولا يسمعون ما يضرهم، ولا يتكلمون ولا يعتذرون بعذر يقبل منهم، فالآية الأخرى التي فسر بها ليست محل اتفاق على أن العمى فيها هو عمى البصر، لكن يوجد في الآية قرينة ترجح أحد القولين، وذلك أن الله -تبارك وتعالى- قال عن هذا الذي يحشر في هذه الصفة: {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا} يعني في الدنيا، فلو كان المراد أنه أعمى عن حجته فإنه لم يكن بصيراً في الدنيا بهذا الاعتبار، فلو كان عنده بصر حقيقي في الدنيا بمعنى بصر القلب فإنه يُقبل على الهدى الذي بعث الله به رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فهذه قرينة مرجحة لأحد هذين القولين، وهذا القول ذهب إليه طائفة من أهل العلم ورجحه من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، ومن أهل العلم من حملها عليهما وقال: لا مانع من ذلك يحشر يوم القيامة أعمى عن حجته، ويحشر أيضاً أعمى البصر، فلا حجة ولا بصر، والمفروض أنه يورد هذا الكلام ولا يحذف في المختصر.

فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- قد رجح أحد القولين، وذهب إلى ما ذهب إليه ابن جرير، وهذا لم يذكره المُختصِر وهو موجود في الأصل، فيكون قول ابن جرير وابن كثير واحداً، وقد يرد سؤال: الله -عز وجل- قال هنا: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} إذا فسرت بعمى البصر أو عمى البصر والبصيرة معاً وهو أن الله -تبارك وتعالى- قال عن هؤلاء في الآخرة: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ} [سورة الكهف:٥٣] هم رأوها، وفي الآية الأخرى التي فسر بها {وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا}، وقال الله -تبارك وتعالى- عنهم: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ} [سورة مريم:٣٨] يعني ما أسمعهم وما أبصرهم، ما أشد سمعهم، فإما أن يقال بأن يوم القيامة يوم طويل، ففي بعض الأحوال لا يسمعون ولا يبصرون، وبعضهم يقول: إنه حين يقول الله -عز وجل- لهم: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [سورة المؤمنون:١٠٨] تصيبهم من الحسرة ما يدهشهم ويذهلهم فلا

يسمعون، -نسأل الله العافية-، وبعضهم يقول: إن العمى ليس المقصود به عمى البصر أصلاً، ومن ثَمّ فلا نحتاج إلى الجمع بينه وبين الآيات التي أثبتت لهم السمع والبصر، والله تعالى أعلم.

قال الإمام ابن القيم الجوزيه -رحمه الله-: "وقوله تعالى: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا}، اختلف فيه هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر، والذين قالوا: هو من عمى البصيرة إنما حملهم على ذلك قوله: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [سورة مريم:٣٨]، وقوله: {لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} [سورة ق:٢٢]، وقوله: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ} [سورة الفرقان:٢٢]، وقوله: {لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ} [سورة التكاثر:٦-٧]، ونظائر هذا مما يثبت لهم الرؤية في الآخرة، كقوله تعالى: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ}[سورة الشورى:٤٥]، وقوله: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ}[سورة الطور: ١٣-١٥]، وقوله: {وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا}، والذين رجحوا أنه من عمى البصر قالوا: السياق لا يدل إلا عليه؛ لقوله: {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا}، وهو لم يكن بصيراً في كفره قط، بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق فكيف يقول: {وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا}؟ وكيف يجاب بقوله: {قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى}؟ بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر، وأنه جوزي من جنس عمله، فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله، وعميت عنه بصيرته أعمى الله بصره يوم القيامة، وتركه في العذاب كما ترك الذكر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة، وعلى تركه ذكره تركه في العذاب، وقال تعالى: {وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا}[الإسراء: ٩٧]، وقد قيل في هذه الآية: إنه عمي وبكم وصم عن الهدى، كما قيل في قوله: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون، ومن نَصَرَ أنه العمى والبكم والصمم المضاد للبصر والسمع والنطق قال بعضهم: هو عمًى وصمم وبكم مقيد لا مطلق، فهم عمي عن رؤية ما يسرهم وسماعه، ولهذا قد روى عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: لا يرون شيئا يسرهم، وقال آخرون: هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك، فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك، ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد وهذا مروي عن الحسن، وقال آخرون: هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق حين يقول لهم الرب -تبارك وتعالى-: {اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ}، فحينئذ ينقطع الرجاء، وتُبكم عقولهم فيصيرون بأجمعهم عمياً بكماً صماً لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون، ولا يسمع منهم إلا الزفير والشهيق وهذا منقول عن مقاتل"[1].

لكن هذا بعيد؛ لأن الله -عز وجل- قال: {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} فليس المقصود بالنار.

---

١ - مفتاح دار السعادة، لابن القيم الجوزيه (١/٤٤-٤٥).

وقال -رحمه الله-: "والذين قالوا: المراد به العمى عن الحجة إنما مرادهم أنهم لا حجة لهم ولم يريدوا أن لهم حجة هم عُميٌ عنها"[٢].

يعني: المقصود أنهم لا حجة لهم، وليس المقصود أن لهم حجة لكنهم عَموا عنها، وفرق بين من له حجة وجاء عند القاضي مثلاً فذهل عن حجته، ما تفطن لها ولو أنه تطفن لها لربما حكم له بذلك القاضي، لكنه عمي عن حجته، فرق بين هذا وبين من ليس له حجة أصلاً، وهنا لا حجة لهم أصلاً.

وقال -رحمه الله- أيضاً: "بل هم عمي عن الهدى كما كانوا في الدنيا، فإن العبد يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه، وبهذا يظهر أن الصواب هو القول الآخر وأنه عمى البصر، فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عياناً، ويقر بما كان يجحده في الدنيا، فليس هو أعمى عن الحق يومئذ.

وفصل الخطاب أن الحشر هو الضم والجمع، ويراد به تارة الحشر إلى موقف القيامة؛ لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غُرْلاً))[٣]، ولقوله تعالى: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} [سورة التكوير:٥]، ولقوله تعالى: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [سورة الكهف:٤٧]، ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر، فحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة، وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار، قال تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} [سورة مريم:٨٥]، وقال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} [سورة الصافات:٢٢-٢٣]، فهذا الحشر هو بعد حشرهم إلى الموقف وهو حشرهم وضمهم إلى النار؛ لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا: {يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} [سورة الصافات:٢٠-٢١]، ثم قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}، وهذا الحشر الثاني، وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف، والحشر الثاني من الموقف إلى النار، فعند الحشر الأول يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون، وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عمياً وبكماً وصماً، فلكل موقف حال يليق به، ويقتضيه عدل الرب تعالى وحكمته، فالقرآن يصدق بعضه بعضا، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا"[٤].

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: {قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى}، أي: لما أعرضت عن آيات الله وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك، {فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا}[الأعراف: ٥١] فإن الجزاء من جنس العمل، فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد والوعيد الشديد في ذلك.

---

٢ - مفتاح دار السعادة، لابن القيم الجوزيه (١/٤٥).

٣ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب {وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [سورة المائدة:١١٧]، برقم (٤٣٤٩)، من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة، برقم (٢٨٥٩)، من حديث عائشة -رضي الله عنها-، بمعناه.

٤ - مفتاح دار السعادة، لابن القيم الجوزيه (١/٤٥-٤٦).

النسيان في هذه الآية {قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا}، بمعنى الترك، والإعراض، وليس بمعنى الذهول عن المعلوم، {أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى}، أي: تُترك، يُنسى من رحمة الله -عز وجل-، ينسى في النار، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: "**فأما نسيان القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه فليس داخلاً في هذا الوعيد**"، صحيح، الإنسان إذا نسي الآيات ونسي السور لا يقال له يوم القيام {كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} أي: في النار، وإنما المقصود هنا الكافر الذي أعرض عن ذكر الله -عز وجل- وعبادته فلم يرفع لذلك رأساً، أما نسيان القرآن نسيان الآيات يقول: "**وإن كان متوعداً عليه**"، فالأحاديث الواردة في هذا لا تخلو من ضعف، ولكن يقال: الأحاديث الواردة في الأمر بتعاهد القرآن، والعمومات في هذا الباب، وما يضاف إلى هذا مما يكون من التفريط إذا كان النسيان بسبب التفريط والتقصير والهجر لقراءة القرآن فإن هذا يكون مذموماً، ولهذا يقال: إن نسيان الآيات على نوعين: نسيان يعذر فيه الإنسان، ونسيان لا يعذر فيه، أما النسيان الذي يعذر فيه فهو إذا كان يتعاهد القرآن ومع ذلك ينسى، أو يكون هذا الإنسان قد شغل بما سبب له هذا النسيان، فنسي بعض القرآن الذي حفظه، شُغل شغلاً يعذر فيه، كإنسان مثلاً ولي خلافة وانشغل برد المظالم للناس، وبالقيام عليهم بالعدل والإصلاح ونحو ذلك فشغله ذلك عما كان يتوفر له من الأوقات في المراجعة، فصارت مراجعته فيها ضعف، فإذا أردت أن السور تكون حاضرة عندك تقرؤها ولا تكاد تخطئ فتحتاج أن تمر على الحفظ كل عشرة أيام، وهذا يحتاج إلى أوقات طويلة، إلا إذا عود الإنسان نفسه المراجعة في الصلاة وفي خارج الصلاة، صلاة النوافل، والفرائض، وهكذا لو أنه شغل مع مجاهدته وحرصه بأمور يعذر فيها، كأن يمرض الإنسان مرضاً لا يتمكن معه من التعاهد والقراءة كما ينبغي، فقد يعذر، أما النسيان الذي لا يعذر فيه فهو ما كان بسبب التفريط والإهمال والإعراض عن القرآن، لكن نصوص الوعيد لا يصح منها شيء.

{وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَدّ وَأَبْقَى} [سورة طه:١٢٧]، **يقول تعالى: وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة، {لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ} [سورة الرعد:٣٤]، ولهذا قال: {وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَدّ وَأَبْقَى}، أي: أشد ألماً من عذاب الدنيا وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه، ولهذا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- للمتلاعنين: ((إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة))**[٥].

{أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنّ فِي ذَلِكَ لآيات لأولي النّهَى * وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رّبّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مّسَمّى * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللّيْلِ فَسَبّحْ وَأَطْرَافَ النّهَارِ لَعَلّكَ تَرْضَى} [سورة طه:١٢٨-١٣٠]، **يقول تعالى: {أَفَلَمْ يَهْدِ} لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمد، كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها يمشون فيها، {إِنّ فِي ذَلِكَ لآيات لأولي النّهَى}.**

---

٥ - رواه مسلم، كتاب اللعان، برقم (١٤٩٣)، من حديث سعيد بن جبير -رضي الله عنه-.

{أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ} بمعنى أفلم يتبين لهم؟ {كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ}، يعني يمشي هؤلاء الأحياء الذين أرادهم القرآن، يمشون في مساكن المُهلَكين المعذبين ولا يتعظون ولا يعتبرون.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأولي النَّهَى}، أي: **العقول الصحيحة والألباب المستقيمة**.

قوله: {النُّهَى} جمع نُهية؛ لأنه ينهى صاحبه عما لا يليق، ينهاه عما يشين لا يجمل ولا يحسن، وأصحاب العقول ينهون غيرهم عن المنكر وعن فعل ما لا يحسن.

كما قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [سورة الحج:٤٦]، **وقال في سورة الم السجدة**: {أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ} [سورة السجدة:٢٦] **الآية، ثم قال تعالى**: {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى}، أي: **لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة لجاءهم العذاب بغتة**.

يقول ابن كثير -رحمه الله- في قوله: {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى}: "**لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه**"، يعني: لكان العذاب لازماً، يقول: "**والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة**"، فابن كثير -رحمه الله- جمع بين المعنيين، ومن أهل العلم من يقول: إن "الكلمة" في قوله: {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ}، هي تأخير العذاب عنهم، أي: أن الله قضى وقدر أن لا يعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم والأقوام الذين قبلهم قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الأيكة، وقوم لوط، فإن الله -تبارك وتعالى- قضى أن لا يعاجل هؤلاء بالعقوبة {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ}، في قضائه الذي قضاه أن يؤجل هؤلاء، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: "**لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة**"، وابن جرير -رحمه الله- يفسر الكلمة التي سبقت من الله بأنها كل من قضى الله له أجلاً فإنه لا يخترمه قبل بلوغ أجله، وهذا القول لا ينافي قول من قال بأن الله -تبارك وتعالى- لا يعذبهم، قضى وقدر أنه لا يعاجلهم بالعقوبة، فالمقصود {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ}، أي: أنه ما حان هلاكهم فهم ينتظرون حتى يأتي قضاء الله -عز وجل- الذي قضاه بإهلاكهم وأخذهم، وإن لم يكن هذا الإهلاك عاماً، فالمقصود أن تكذيبهم هو مقتضٍ لتعذيبهم وأخذهم، ولكن الله -تبارك وتعالى- جعل لهم أجلاً ولا يأخذ أحداً قبل حلول أجله، فكان هذا سبباً للإمهال فلم يعاجلهم بالعقوبة، {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا}، أي: لكان العذاب والأخذ والإهلاك لزاماً؛ لأنهم جاءوا بما يقتضيه، قد صدر منهم ما يتسبب عنه العذاب، فصار المانع من العذاب أمرين: ما سبق في الكلمة أنه لا يَهلك أحدٌ قبل الأجل الذي حدده الله له، أو على قول ابن كثير -رحمه الله-: "**إنه لا يعذب أحداً قبل قيام الحجة عليه**"، فبعث إليهم رسوله -صلى الله عليه وسلم-؛ ليقيم الحجة، وهكذا الأجل المسمى الذي أجله الله، فلا يؤخذون قبل بلوغهم إياه، والله أعلم.

ولهذا قال لنبيه مسلياً له: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ}، أي: **من تكذيبهم لك**، {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ}، **يعني: صلاة الفجر** {وَقَبْلَ غُرُوبِهَا}، **يعني: صلاة العصر**.

هذا كقوله تعالى -أيضاً-: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [سورة البقرة:٤٥]، وقوله: {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ} [سورة المزمل:٢-٣] ثم قال: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [سورة المزمل:٥]، فيستعان بها على القيام بأعباء الدعوة، وما يحصل من الأذى والتكذيب وما إلى ذلك، وهكذا على أعباء الدنيا والكبَد الذي يلقاه الإنسان فيها، {قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ} قال: "**صلاة الفجر**"، {وَقَبْلَ غُرُوبِهَا} قال: "**يعني صلاة العصر**".

كما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي -رضي الله عنه- قال: كنا جلوساً عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: ((إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا))[٦] **ثم قرأ هذه الآية.**

وروى الإمام أحمد عن عمارة بن رؤيبة قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها))[٧] **رواه مسلم.**

وقوله: {وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ}، أي: من ساعاته فتهجد به، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء، {وَأَطْرَافَ النَّهَارِ} في مقابلة آناء الليل، {لَعَلَّكَ تَرْضَى} كما قال تعالى: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [سورة الضحى:٥]**، وفي الصحيح: ((يقول الله تعالى: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك))**[٨].

قوله: {وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ} قال: "**أي: من ساعاته**"، و"آناء" جمع إناء، وهي الساعة يقال لها إناء، {وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ}، وهذا الذي عليه عامة السلف: سبَّحَ بمعنى صلي، والصلاة يقال لها تسبيح، وابن عمر -رضي الله عنه- لما رأى أناساً يصلون السنة في السفر، قال: لو كنت مسبحاً لأتممت، ويقال مثلاً: سُبحة الضحى، يعني: صلاة الضحى، قال: {فَسَبِّحْ}، **أي: من ساعاته فتهجد به، وبعضهم حمله على المغرب والعشاء** {وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ}، آناء الليل: صلاة المغرب -باعتبار أنها تعد من الليل؛ لأن الليل يبدأ من غروب الشمس- وصلاة العشاء، {وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ}، قال: في مقابلة الليل، وأطراف النهار بعضهم قال: المقصود بها الظهر والمغرب، باعتبار أن الظهر هو آخر الطرف الأول؛ لأن النهار ينقسم إلى قسمين: إلى الزوال وما بعد الزوال، يعني: الصباح والمساء، والظهر هو منتهى الطرف الأول ومبتدأ الطرف الثاني، والمغرب هو نهاية الطرف الثاني، {وَأَطْرَافَ النَّهَارِ}، فسرت بهذا، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وبعضهم يقول: إن الظهر أشار إليه بقوله: {وَقَبْلَ غُرُوبِهَا} فإن قوله: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا}، قبل الغروب يدخل فيه الظهر والعصر وهما صلاتا العشي، وبعضهم يحمل هذا أصلاً على غير الفرائض يقول: المقصود به التطوع،

---

٦ - رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، برقم (٥٢٩)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، برقم (٦٣٣).

٧ - رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، برقم (٦٣٤)، وأحمد في المسند برقم (١٧٢٢٠)، وقال محققوه: حديث صحيح رجاله ثقات.

٨ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، برقم (٦١٨٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، برقم (٢٨٢٩).

كالصلاة في الليل، وفي أطراف النهار، وقد يرد على هذا أن ما قبل الغروب وقت النهي؛ لأنه وقت العصر، ولكن لقائلي هذا القول أن يقولوا: ما قبل وقت النهي، قال: {لَعَلَّكَ تَرْضَى}، أي: تنال ما تَرضى به نفسُك، وذلك بدخول الجنة، وحصول النعيم المقيم، وفي القراءة الأخرى في قراءة متواترة قرأ بها الكسائي وهي رواية عن عاصم: {لَعَلَّكَ تُرْضَى}، أي: يرتضيك ربك، {لَعَلَّكَ تُرْضَى} تكون مرضياً عند ربك -تبارك وتعالى-، والقراءتان لكل قراءة معنى، فهما بمنزلة الآيتين، فإذا فعل ذلك {لَعَلَّكَ}، أي: من أجل أن تَرضى، يحصل له الرضا، وهو يكون مرضياً عند ربه -تبارك وتعالى-، وهذا يدل على أهمية هذه الصلوات، وأنها تكون سبباً لرضا العبد بما يحصل له من الجزاء والثواب، وتكون سبباً لكونه مرضياً عند الله جل جلاله.

وفي الصحيح: ((يقول الله تعالى: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: إني أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً))[٩]**، وفي الحديث الآخر: ((يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويزحزحنا عن النار ويدخلنا الجنة؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه، وهي الزيادة))**[١٠].

{وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [سورة طه:١٣١-١٣٢]، **يقول تعالى لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك وقليل من عبادي الشكور، وقال مجاهد: {أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ}، يعني: الأغنياء، فقد آتاك خيراً مما آتاهم، كما قال في الآية الأخرى: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ} الآية، وكذلك ما ادخره الله تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- في الآخرة أمر عظيم لا يُحد ولا يوصف، كما قال تعالى: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}** [سورة الضحى:٥] **ولهذا قال: {وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى}.**

قوله: {وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ}، يعني: هذا نهي عن التطلع إلى ما في أيدي المنعمين والمترفين من أهل الدنيا، {إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً} ليس المقصود الأزواج والزوجات وإنما المقصود الأصناف منهم، {زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} وذلك ما فيها من البهرج، والمتاع الزائل الذي تنجذب إليه النفوس ثم ما يلبث أن يضمحل كما هو مشاهد، يعني: يعجب الناس به مدة من الزمان ثم بعد ذلك يتلاشى كالسراب تماماً، نحن نشاهد هذا بأمّ أعيننا ولكن كثيراً من الناس لا يعقلون، تأمل وأنت في الطريق السيارات القديمة تنظر إليها حتى كأنها نازلة، وكأنها صغيرة، لكن حينما كانت جديدة ما كانت هكذا، كانت تستهوي الناظرين وتشدهم، ولها من الرونق

---

٩ - رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، برقم (٦١٨٣)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، برقم (٢٨٢٩).

١٠ - رواه الطبراني في الأوسط بهذا اللفظ برقم (٧٥٦)، وصححه الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم، برقم (٤٧٢).

والجمال والبهاء، لكن ما كانت هكذا يوم كانت جديدة، فكل ما تحت أيدينا هذا مصيره، وانظر إلى ما نلبسه من اللباس أو نجلس عليه من الأثاث في أيام جدته له رونق ثم بعد ذلك يزهد فيه الإنسان، ويتغير، وهكذا في كل شيء من هذه الحياة.

ولهذا قال: {وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى}، **وفي الصحيح:** "**أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن، فرآه متوسداً مضطجعاً على رُمال حصير، وليس في البيت إلا صُبْرَة من قَرَظ، وأُهُب معلقة.**

المشربة: مكان غرفة في الدور الثاني، العلية.

وقوله: "**على رُمال**"، بضم الراء، رُمال حصير، والرُّمال ما رُمل يعني نسج، تعرفون الحصير، يعني وليس عليه غطاء، بحيث إنه ليس عليه شيء يقي الجالس أو ما اضطجع عليه من قسوته حتى لا يؤثر في جلده، الحصير لا يعتبر من الفرش الوطيئة، سرير حصير أو نسج من العيدان أو من السعف، ولم يكن عليه غطاء، رُمال حصير، وليس في البيت إلا صُبرة، الصُبرة الشيء المجموع، تقول: صُبرة من طعام، صُبرة من ثياب، قال: إلا صُبرة من قَرَظ هو ما يدبغ به، المادة التي يدبغ بها يقال لها قرظ، هناك شجر يقال له: القرظ، مادة صمغية، وهكذا يدبغ بأشياء مختلفة، يدبغ بقشر الرمان كما هو معروف، ويدلك به الجلد من باطنه فيذهب ما به مما يحصل به العفن، الشاهد أنه ليس فيه إلا صُبرة من قرظ وأُهُب معلقة، والأُهُب جمع إهاب وهو الجلد، وبعضهم يقول: الجلد الذي لم يدبغ.

فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما يبكيك يا عمر؟! فقال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ فقال: أوَ في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا))[11]**، فكان -صلى الله عليه وسلم- أزهد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد.**

يعني كسرى وقيصر على أسرّة من ذهب وعلى الأرائك، والنبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا المكان على الحصير، ليس في هذه الغرفة إلا مجموعة من القرظ، وأُهب: جلود معلقة، ليس فيها شيء آخر.

روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا، قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: بركات الأرض))[12]**، وقال قتادة والسدي: زهرة الحياة الدنيا، يعني: زينة الحياة الدنيا، وقال قتادة:** {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} **لنبتليهم، وقوله:** {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} [سورة طه:١٣٢]، **أي: استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصبر أنت على فعلها، كما قال تعالى:** {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً} [سورة التحريم:٦]، **وروى ابن**

---

١١ - رواه البخاري، كتاب المظالم، باب الغرفة والعلية المشرفة في السطوح وغيرها، برقم (٢٣٣٦)، من حديث ابن عباس -رضي الله عنه-، ومسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن وقوله تعالى: {وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ} [سورة التحريم:٤]، برقم (١٤٧٩).

١٢ - رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣٠٨/٩)، وهو عند البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، برقم (٦٠٦٣)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، برقم (١٠٥٢).

أبي حاتم عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويَرفأ، وكان له ساعة من الليل يصلي فيها، فربما لم يقم، فنقول: لا يقوم الليلة كما كان يقوم، وكان إذا استيقظ أقام يعني أهله، وقال: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا}.

فإذا استيقظ أقام أهله وقال: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ}، لكن الأثر بهذا السياق الذي أورده به الحافظ ابن كثير غير واضح، ليس من جهة الدلالة لكن من جهة بعض الإجمال والترتيب، ولفظه عند ابن جرير أوضح، فعند ابن جرير: كان يبيت عند عمر بن الخطاب من غلمانه أنا ويَرفأ، لاحظ هذا أوضح مما أورده هنا: كان يبيت عنده أنا ويرَفأ، وهكذا أيضاً إلى قوله: "**وكان له ساعة من الليل يصلي فيها**"، عند ابن جرير: فإذا قلنا لا يقوم من الليل كما كان يقوم، يعني: لسبب أنه سهر أو تعب، فإذا قلنا: لا يقوم من الليل كما كان يقوم يكون أبكر ما كان قياماً، وربما لم يقم فنقول: لا يقوم الليل، فعند ابن جرير: فإذا قلنا لا يقوم من الليل كما كان يقوم يكون أبكر ما كان قياماً، يعني: بالعكس، حيث نتوقع أنه لا يقوم يبكر أكثر من العادة في القيام.

قوله: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا}، قال: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ} ما قال: صلِّ، وإنما أمره بأن يأمر أهله، وأمره الله بالصلاة {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ} [سورة الإسراء:٧٨]، وهكذا قبله، لما ذكر هذه الأوقات قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وغير ذلك، وهو أيضاً داخل ضمناً، إذا أمره بأمر أهله بالصلاة فكذلك هو أيضاً مأمور بها، قوله: واصطبر -أيضاً- عليها داخل في هذا، الأمر بالصبر على الصلاة، يتضمن الأمر بها، فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فهذا فيه مزيد من الصبر.

وقوله: {لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ}، يعني: إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب.

من هنا أخذ بعض أهل العلم أن إقامة الصلاة سبب لسعة الرزق، ولهذا قال الله -عز وجل-: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا} [سورة الجمعة:١١]، في وقت حاجة وقحط وجاءت هذه العير عير يحيى الكلبي -رضي الله عنه- من الشام فبدءوا ينسلون من المسجد والنبي -صلى الله عليه وسلم- يخطب حتى ما بقي إلا اثنا عشر رجلاً، فالله -عز وجل- يعاتبهم: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ}، ثم قال: {وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}، فبقاؤكم لسماع الخطبة في المسجد خير من هذا الذي خرجتم إليه، ورزقكم محفوظ عند الله -تبارك وتعالى- فهو خير الرازقين، فالتضييع والترك والإعراض لا يستجلب به الرزق إنما الرزق عند الله -عز وجل-، فتُحفظ حدوده، ويقوم العبد بما فرض الله عليه، وما كتب له من الرزق سيأتيه ويكون ذلك سبباً للرزق، بل إن العبد قد يحرم الرزق بالذنب يصيبه، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا من المعاني التي يحتاج الإنسان أن يتأملها ويقف عندها لأن الكثيرين قد يظنون أن طلب الدنيا والسعي في طلب الرزق يقتضي التخفف من الدين، فقد تجد الإنسان ينشأ نشأة طيبة وصالحة ثم ينهمك في التجارة ثم ما يلبث أن يتحول إلى حالة أخرى، ممكن أن يكون الإنسان تاجراً ومحافظاً على دينه، فلا يوجد تعارض.

كما قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ} [سورة الطلاق:٢-٣]، وقال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ...} إلى قوله: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [سورة الذاريات:٥٦-٥٨] ولهذا قال: {لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ}.

وقد روى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول الله تعالى: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك))[١٣]، وروى أيضاً عن زيد بن ثابت سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة))[١٤].

وقوله: {وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى}، أي: وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة وهي الجنة لمن اتقى الله، وفي الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((رأيت الليلة كأنّا في دار عقبة بن رافع، وأنّا أتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة، وأن ديننا قد طاب))[١٥].

هذا نوع من الرطب في المدينة منسوب إلى رجل من أهل المدينة يقال له ابن طاب، أخذها من دار عقبة بن رافع، عقبة: أن العاقبة لهم، والرفعة: رافع، رطب ابن طاب: أن الدين قد طاب، واكتمل: يعني: تجاوز الآفة وتجاوز -كما يقال- القنطرة أو سلم.

{وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى * قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى} [سورة طه:١٣٣-١٣٥]، يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم: {لَوْلاَ}، أي: هلا يأتينا محمد بآية من ربه، أي: بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: {أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيّنَةُ مَا فِي الصّحُفِ الأُولَىَ}.

لولا هذه للتحضيض، وأحياناً تأتي للتبكيت كما هو معروف، مثل: {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ} [سورة هود:١١٦]، يعني: إذا كان الأمر لا يمكن استدراكه فهي للتبكيت.

قال الله تعالى: {أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيّنَةُ مَا فِي الصّحُفِ الأُولَىَ}، يعني: القرآن الذي أنزله عليه الله، وهو أمي لا يحسن الكتابة.

قوله: {بَيّنَةُ مَا فِي الصّحُفِ الأُولَىَ}، قال: "يعني هو القرآن"، وبعضهم يقول: هو التصريح بنبوته -صلى الله عليه وسلم- في الكتب السابقة، {أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيّنَةُ مَا فِي الصّحُفِ الأُولَىَ} بما فيها من التصريح بنبوته -عليه الصلاة والسلام-، وبعضهم يقول: {أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيّنَةُ مَا فِي الصّحُفِ الأُولَىَ} هو إهلاكنا للأمم الذين كفروا واقترحوا الآيات، فكيف يطلبون الآيات؟ والمقصود هنا بالآيات المعجزات والخوارق التي يقترحونها وإلا فقد جاءهم آية انشقاق القمر، وأشياء منها هذا القرآن، لكن آيات يقترحونها: يحول لهم الصفا ذهباً، ويزيح عنهم

---

١٣ - رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٤٦٦)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا، برقم (٤١٠٧)، والحاكم في المستدرك برقم (٧٩٢٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٣٥٩)، وفي صحيح الجامع برقم (٢٧١٤).

١٤ - رواه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الهم بالدينا، برقم (٤١٠٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٩٥٠).

١٥ - رواه مسلم، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٢٧٠).

جبال مكة، أو مثل الآيات التي جاء بها الأنبياء كناقة صالح -عليه الصلاة والسلام- وعصا موسى، فالله -تبارك وتعالى- يقول: {أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى}، بعضهم يقول: هو إهلاكنا لأولئك الذين جاءتهم هذه الآيات حيث لم يؤمنوا بها، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- أن أولائك الذين اقترحوا الآيات ثم لم يؤمنوا بها جاءهم العذاب المستأصل، والحافظ ابن كثير يفسره بالقرآن، وكذلك الشنقيطي -رحمه الله- رجح أنه القرآن، قال: لأنه برهان قاطع على صحة جميع الكتب من هذه الحيثية، وصدّق ما جاءت به باعتبار أنه مهيمن على الكتب كلها، وهو هذا القرآن الذي يقرر أنها من عند الله -عز وجل- وأنها وحي منه -تبارك وتعالى-، فهذا القرآن بينة على صدقها، وصحتها.

ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها، فإن القرآن مهيمن عليها يُصدّق الصحيح، ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة العنكبوت: {وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [سورة العنكبوت:٥٠-٥١].

حتى الشنقيطي -رحمه الله- يفسر الآية تلك بهذه الآية، {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ} {أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى} [سورة طه:١٣٣]، ما يكفيهم هذا؟! وهو هذا القرآن.

وفي الصحيحين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة))[١٦]، وإنما ذكر هاهنا أعظم الآيات التي أعطيها -عليه السلام-، وهو القرآن، وإلا فله من المعجزات ما لا يُحد ولا يحصر، كما هو مودع في كتبه ومقرر في مواضعه.

ثم قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً}، أي: لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا: {رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً} قبل أن تُهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه كما قال: {فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى} يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون {وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [سورة يونس:٩٧]، **كما قال تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}** [سورة الأنعام:١٥٥] **إلى قوله: {بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ}** [سورة الأنعام:١٥٧]، **وقال: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ}** [سورة فاطر:٤٢] **الآية، وقال: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا}** [سورة الأنعام:١٠٩] **الآيتين، ثم قال تعالى: {قُلْ}، أي: يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده {كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ}** [سورة طه:١٣٥]، **أي: منا ومنكم، {فَتَرَبَّصُوا}، أي: فانتظروا.**

---

١٦ - رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، برقم (٤٦٩٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-، برقم (١٥٢).

{كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ}، أي: منا ومنكم بما يقع ويحصل للآخر من الدوائر، كل واحد ينتظر بالآخر ماذا تكون نهايته ومصيره وعاقبة ما ينزل به؟.

{فَتَرَبَّصُوا}، أي: **فانتظروا**، {فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ}، أي: **الطريق المستقيم** {وَمَنِ اهْتَدَى} **إلى الحق وسبيل الرشاد، وهذا كقوله تعالى**: {وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً} [سورة الفرقان:٤٢]، **وقال**: {سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ} [سورة القمر:٢٦].

آخر تفسير سورة طه، ولله الحمد والمنة، ويتلوه إن شاء الله تفسير سورة الأنبياء، ولله الحمد.